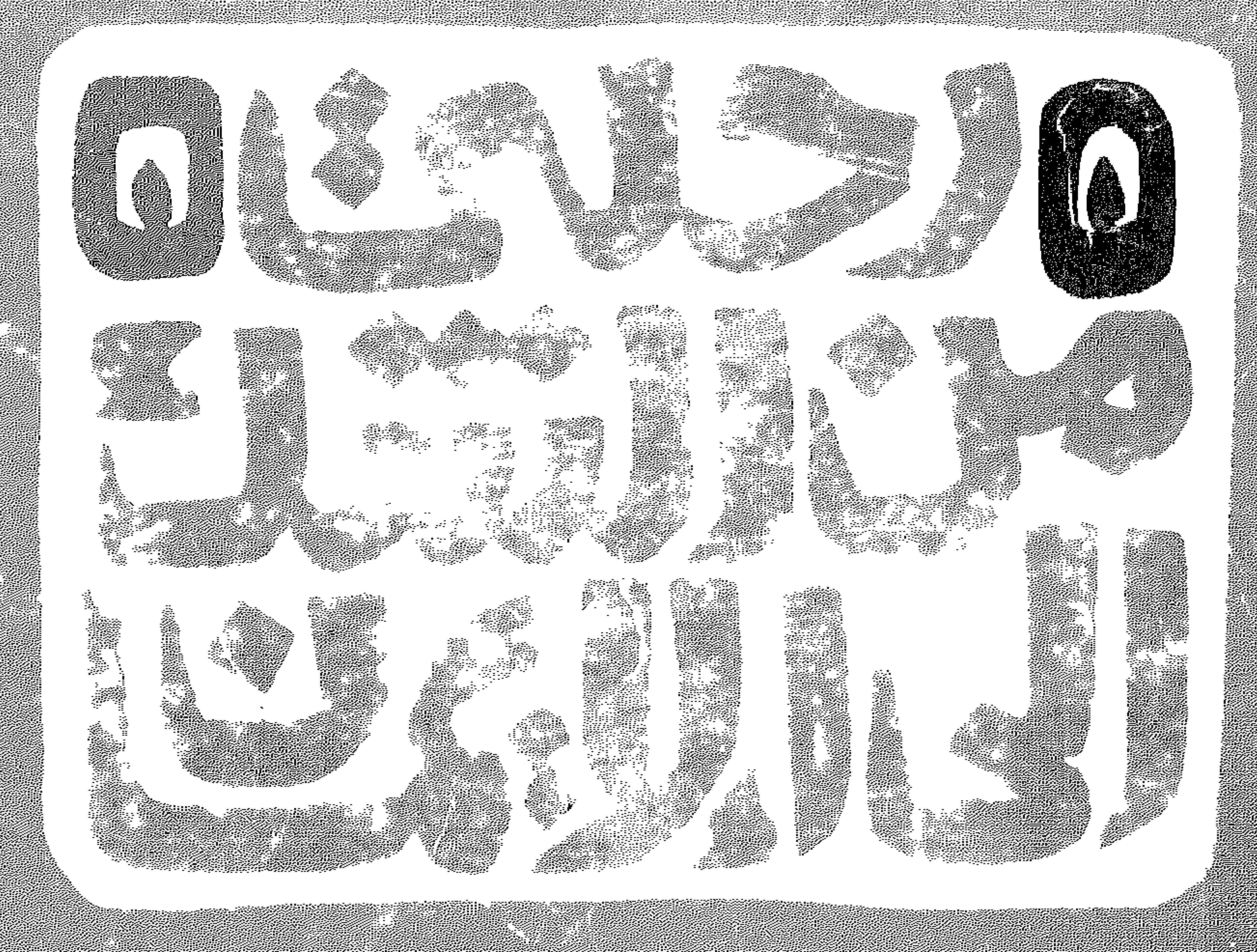
مصطفى محمود





دار المعارف بمصر

مصطفى محمود

رحلتي من الشك إلى الإيمان

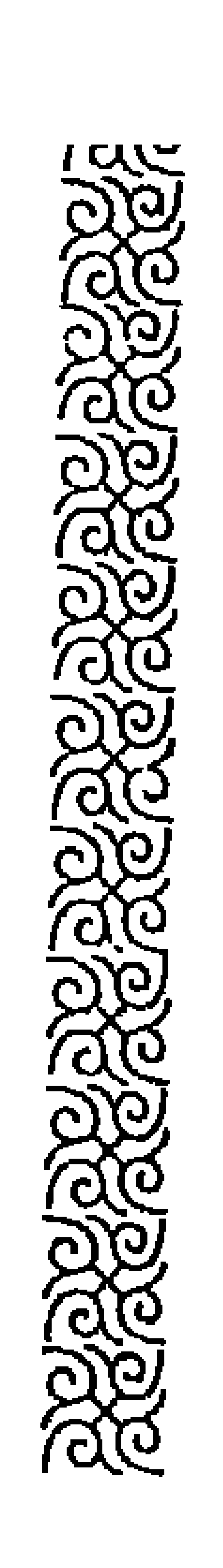


دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم





كان ذلك من زمن بعيد لست أذكره . . ربما كنت أدرج من الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة وربما قبل ذلك . . فى مطالع المراهقة . . حينما بدأت أتساءل فى تمرد :

– تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لابد لكل مخلوق من خالق ولابد لكل صنعة من صانع ولابد لكل موجود من موجد . . صدقنا وآمنا . . فلتقولوا لى إذن من خلق الله . . أم أنه جاء بذاته . . فإذا كان قد جاء بذاته وصح فى تصوركم أن يتم هذا الأمر . . فلماذا لا يصح فى تصوركم أيضاً أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق وينتهى الإشكال .

كنت أقول هذا فتصفر من حولى الوجوه وتنطلق الألسن تمطرنى باللعنات وتتسابق إلىّ اللكمات عن يمين وشمال . . ويستغفر لى أصحاب القلوب التقية ويطلبون لى الهدى . . ويتبرأ منى المتزمتون ويجتمع حولى المتمردون . . فنغرق معاً فى جدل لا ينتهى إلا ليبدأ ولا يبدأ إلا ليسترسل .

وتغيب عنى فى تلك الأيام الحقيقة الأولى وراء ذلك الجدل .

إن زهوى بعقلى الذى بدأ يتفتح وإعجابى بموهبة الكلام ومقارعة الحجج

التى انفردت بها . . كان هو الحافز دائماً . . وكان هو المشجع . . وكان هو الدافع . . وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب .

لقد رفضت عبادة الله لأني استغرقت فى عبادة نفسى وأعجبت بومضة النور التى بدأت تومض فى فكرى مع انفتاح الوعى وبداية الصحوة من مهد الطفولة .

كانت هذه هى الحالة النفسية وراء المشهد الجدلى الذى يتكرر كل يوم .

وغابت عنى أيضاً أصول المنطق وأنا أعالج المنطق ولم أدرك أني أتناقض مع نفسى إذ أعترف بالخالق ثم أقول ومن خلق الخالق فأجعل منه مخلوقاً فى الوقت الذى أسميه فيه خالقاً وهى السفسطة بعينها .

ثم إن القول بسبب أول للـوجود يقتضى أن يكون هذا السبب واجب الوجود فى ذاته وليس معتمداً ولا محتاجاً لغيره لكى يوجد . أما أن يكون السبب فى حاجة إلى سبب فإن هذا يجعله واحدة من حلقات السببية ولا يجعل منه سبباً أول .

هذه هى أبعاد القضية الفلسفية التى انتهت بأرسطو إلى القول بالسبب الأول والمحرك الأول للوجود .

ولم تكن هذه الأبعاد واضحة فى ذهنى فى ذلك الحين .

ولم أكن قد عرفت بعد من هو أرسطو ولا ماهى القوانين الأولى للمنطق والجدل .

واحتاج الأمر إلى ثلاثين سنة من الغرق فى الكتب وآلاف الليالى من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس وإعادة النظر ثم إعادة النظر فى إعادة النظر . ثم تقليب الفكر على كل وجه لأقطع الطريق الشائكة من الله والإنسان إلى لغز الحياة إلى لغز الموت إلى ما أكتب اليوم من كلمات على درب اليقين .

لم يكن الأمر سهلاً . . لأنى لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذاً سهلاً .

ولو أنِي أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودنى لأعفيت نفسى من عناء الجدل . . ولقادتنى الفطرة إلى الله . . ولكنى جئت فى زمن تعقد فيه كل شيء وضعف صوت الفطرة حتى صار همساً وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغروراً واعتداداً . . والعقل معذور فى إسرافه إذ يرى نفسه واقفاً على هرم هائل من المنجزات وإذ يرى نفسه مانحاً للحضارة بما فيها من صناعة وكهرباء وصواريخ وطائرات وغواصات وإذ يرى نفسه قد اقتحم البر والبحر والجو والماء وما تحت الماء . . فتصور نفسه القادر على كل شيء وزج بنفسه فى كل شيء وأقام نفسه حكماً على ما يعلم وما لا يعلم .

* * *

وغرقت فى مكتبة البلدية بطنطا وأنا صبى أقرأ لشبلى شميل وسلامة موسى وأتعرف على فرويد وداروين .

وشغفت بالكيميا والطبيعة والبيولوجيا . . وكان لى معمل صغير فى غرفتى أحضر فيه غاز ثانى أكسيد الكربون وثانى أكسيد الكبريت وأقتل الصراصير بالكلور وأشرح فيه الضفادع .

وكانت الصيحة التى غمرت العالم هى . . العلم . . العلم . . العلم . . ولا شيء غير العلم .

النظرة الموضوعية هى الطريق .

لنرفض الغيبيات ولنكف عن إطلاق البخور وترديد الخرافات .

من يعطينا دبابات وطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات ؟ ؟ وكان ما يصلنا من أنباء العلم الغربى باهراً يخطف أبصارنا وكنا نأخذ عن الغرب كل شئ . . الكتب والدواء والملابس والمنسوجات والقاطرات والسيارات حتى

الأطعمة المعلبة حتى قلم الرصاص والدبوس والإبرة حتى نظم التعليم وقوالب التأليف الأدبى من قصة ومسرحية ورواية حتى ورق الصحف .

وحول أبطال الغرب وعبقرياته كنا ننسج أحلامنا ومثلنا العليا . . حول باستير وماركونى ورونتجن وأديسون . . وحول نابليون وإبراهام لنكولن . . وكرستوفر كولمبس وماجلان .

كان الغرب هو التقدم .

وكان الشرق العربى هو التخلف والضعف والتخاذل والانهيار تحت أقدام الاستعمار .

وكان طبيعيًّا أن نتصور أن كل ما يأتينا من الغرب هو النور والحق . . وهو السبيل إلى القوة والخلاص .

ودخلت كلية الطب لأتلقى العلوم بلغة إنجليزية وأدرس التشريح فى مراجع إنجليزية وأتكلم مع أساتذتى فى المستشفى باللغة الإنجليزية . . ليس لأن إنجلترا كانت تحتل القناة لكن لسبب آخر مشروع وعادل . . هو أن علم الطب الحديث كان صناعة غربية تماماً . . وما بدأه العرب فى هذه العلوم أيام ابن سينا، كان مجرد أوليات لاتفى بحاجات العصر .

وقد التقط علماء الغرب الخيط من حيث انتهى ابن سينا والباحثون العرب ثم استأنفوا الطريق بإمكانيات متطورة ومعامل ومختبرات وملايين الجنيهات المرصودة للبحث ، فسبقوا الأولين من العرب والفرس والعجم ، وأقاموا صرح علم الطب الحديث والفسيولوجيا والتشريح والباثولوجيا وأصبحوا بحق مرجعاً .

وتعلمت مع ما تعلمت فى كتب الطب . . النظرة العلمية . . وأنه لا يصح إقامة حكم بدون حيثيات من الواقع وشواهد من الحس .

وأن العلم يبدأ من المحسوس والمنظور والملموس وأن العلم ذاته هو عملية جمع شواهد واستخراج قوانين .

وما لا يقع تحت الحس فهو فى النظرة العلمية غير موجود .

وأن الغيب لاحساب له فى الحكم العلمى .

بهذا العقل العلمى المادى البحت بدأت رحلتى فى عالم العقيدة وبالرغم من هذه الأرضية المادية وهذا الانطلاق من المحسوسات الذى ينكر كل ما هو غيب فإنى لم أستطع أن أنفى أو أستبعد القوة الإلهية .

كان العلم يقدم إلى صورة عن الكون بالغة الإحكام والانضباط . . كل شىء من ورقة الشجر إلى جناح الفراش إلى ذرة الرمل فيها تناسق ونظام وجمال

الكون كله مبنى وفق هندسة وقوانين دقيقة .

وكل شىء يتحرك بحساب من الذرة المتناهية فى الصغر إلى الفلك العظيم إلى الشمس وكواكبها إلى المجرة الهائلة التى تحوى أكثر من ألف مليون شمس . . إلى السماء المترامية التى يقول لنا الفلك إن فيها أكثر من ألف مليون مجرة .

كل هذا الوجود اللامتناهى من أصغر إلكترون إلى أعظم جرم سماوى كنت أراه أشبه بمعزوفة متناسقة الأنغام مضبوطة التوزيع كل حركة فيها بمقدار . . أشبه بالبدن المتكامل الذى فيه روح .

كان العلم يمدني بوسيلة أتصور بها اللّه بطريقة مادية .

وفى هذه المرحلة تصورت أن اللّه هو الطاقة الباطنة فى الكون التى تنظمه فى منظومات جميلة من أحياء وجمادات وأراض وسماوات . هو الحركة التى كشفها العلم فى الذرة وفى البروتوبلازم وفى الأفلاك . . هو الحيوية الخالقة الباطنة فى كل شىء . . أو بعبارة القديس توماس . . الفعل الخالص الذى ظل يتحول فى الميكروب حتى أصبح إنساناً ومازال يتحول . وسيظل يتحول إلى مالا نهاية .

والوجود كان فى تصورى لا محدوداً لا نهائيًّا . إذ لا يمكن أن يحد الوجود

إلا العدم . . والعدم معدوم . . ومن هنا يلزم منطقيًّا أن يكون الوجود غير محدود ولا نهائى .

ولا يصح أن نسأل . . من الذى خلق الكون . إذ أن السؤال يستتبع أن الكون كان معدوماً فى البداية ثم وجد . . وكيف يكون لمعدوم كيان .

إن العدم معدوم فى الزمان والمكان وساقط فى حساب الكلام ولا يصح القول بأنه كان .

وبهذا جعلت من الوجود حدثاً قديماً أبديًّا أزليًّا ممتدًّا فى الزمان لا حدود له ولا نهاية .

وأصبح الله فى هذه النظرة هو الكل ونحن تجلياته .

الله هو الوجود . . والعدم قبله معدوم .

هو الوجود المادى الممتد أزلاً وأبداً بلا بدء وبلا نهاية .

وهكذا أقمت لنفسى نظرية تكتفى بالموجود . . وترى أن الله هو الوجود . . دون حاجة إلى افتراض الغيب والمغيبات . . ودون حاجة إلى التماس اللا منظور .

وبذلك وقعت فى أسر فكرة وحدة الوجود الهندية وفلسفة سبينوزا . . وفكرة برجسون عن الطاقة الباطنة الخلاقة وكلها فلسفات تبدأ من الأرض . . من الحواس الخمس . . ولا تعترف بالمغيبات .

ووحدة الوجود الهندية تمضى إلى أكثر من ذلك فتلغى الثنائية بين المخلوق والخالق . . فكل المخلوقات فى نظرها هى عينى الخالق .

وفى سفر اليوبانيشاد صلاة هندية قديمة تشرح هذا المعنى فى أبيات رقيقة من الشعر .

إن الإله براهماً الذى يسكن قلب العالم يتحدث فى همس قائلاً :

إذا ظن القاتل أنه قاتل

والمقتول أنه قتيل

فليسا يدريان ما خفى من أساليبى
حيث أكون الصدر لمن يموت
والسلاح لمن يقتل
والجناح لمن يطير
وحيث أكون لمن يشك فى وجودى .
كل شىء حتى الشك نفسه .
وحيث أكون أنا الواحد
وأنا الأشياء

إنه إله يشبه النور الأبيض . . واحد . . وبسيط . . ولكنه يحتوى فى داخله على ألوان الطيف السبعة .

وعشت سنوات فى هذا الضباب الهندى وهذه الماريجوانا الصوفية ، ومارست اليوجا وقرأتها فى أصولها وتلقيت تعاليمها على أيدى أساتذة هنود . وسيطرت علىّ فكرة التناسخ مدة طويلة،وظهرت فى روايات لى مثل العنكبوت والخروج من التابوت .

ثم بدأت أفيق على حالة من عدم الرضا وعدم الاقتناع .

واعترفت بينى وبين نفسى أن هذه الفكرة عن الله فيها الكثير من الخلط .

ومرة أخرى كان العلم هو دليلى ومنقذى ومرشدى .

عكوفى على العلم وعلى الشريحة الحية تحت الميكرسكوب . قال لى شيئاً آخر .

وحدة الوجود الهندية كانت عبارة شعرية صوفية . . ولكنها غير صادقة . . والحقيقة المؤكدة التى يقولها العلم أن هناك وحدة فى الخامة لا أكثر . . وحدة فى النسيج والسنن الأولية والقوانين . . وحدة فى المادة الأولية التى بنى منها كل شىء . . فكل الحياة من نبات وحيوان وإنسان بنيت من تواليف الكربون

مع الإيدروجين والأكسجين . . ولهذا تتحول كلها إلى فحم بالاحتراق . . وكل صنوف الحياة تقوم على الخلية الواحدة ومضاعفاتها .

ومرة أخرى نتعلم من الفلك والكيمياء والعلوم النووية أن الكربون ذاته وكذلك جميع العناصر المختلفة جاءت من طبخ عنصر واحد فى باطن الأفران النجمية الهائلة هو الأيدروجين .

الأيدروجين يتحول فى باطن الأفران النجمية إلى هليوم وكربون وسليكون وكوبالت ونيكل وحديد إلى آخر قائمة العناصر وذلك بتفكيكه وإعادة تركيبه فى درجات حرارة وضغوط هائلة .

وهذا يرد جميع صنوف الموجودات إلى خامة واحدة . . إلى فتلة واحدة حريرية غزل منها الكون فى تفصيلات وتصميمات وطرز مختلفة .

والخلاف بين صنف وصنف وبين مخلوق ومخلوق هو خلاف فى العلاقات الكيفية والكمية . . فى المعادلة والشفرة التكوينية . . لكن الخامة واحدة . . وهذا سر الشعور بالنسب والقرابة والمصاهرة وصلة الرحم بين الإنسان والحيوان وبين الوحش ومروضه وبين الأنف التى تشم والزهرة العاطرة وبين العين ومنظر الغروب الجميل .

هذا هو سر الهارمونى والانسجام .

إن كل الوجود أفراد أسرة واحدة من أب واحد .

وهو أمر لا يستتبع أبداً أن نقول إن اللّه هو الوجود ، وأن الخالق هو المخلوق فهذا خلط صوفى غير وارد .

والأمر شبيه بحالة الناقد الذواقة الذى دخل معرضاً للرسم فاكتشف وحدة فنية بين جميع اللوحات . . واكتشف أنها جميعاً مرسومة على الخامة نفسها . . وبذات المجموعة الواحدة من الألوان ، وأكثر من هذا أن أسلوب الرسم واحد .

والنتيجة الطبيعية أن يقفز إلى ذهن الناقد أن خالق جميع هذه اللوحات واحد . وأن الرسام هو بيكاسو أو شاجال أو موديلياني . . مثلاً . .

فالوحدة بين الموجودات تعني وحدة خالقها .

ولكنها لاتعني أبداً أن هذه الموجودات هي ذاتها الخالق .

ولا يقول الناقد أبداً إن هذه الرسوم هي الرسام .

إن وحدة الوجود الهندية شطحة صوفية خرافية . . وهي تبسيط وجداني لايصادق عليه العلم ولا يرتاح إليه العقل .

وإنما تقول النظرة العلمية المتأملة لظواهر الخلق والمخلوقات ، إن هناك وحدة بينها . . وحدة أسلوب ووحدة قوانين ووحدة خامات تعني جميعها أن خالقها واحد لم يشرك معه شريكاً يسمح بأسلوب غير أسلوبه .

وتقول لنا أيضاً إن هذا الخالق هو عقل كلي شامل ومحيط ، يلهم مخلوقاته ويهديها في رحلة تطورها ويسلحها بوسائل البقاء ، فهو يخلق لبذور الأشجار الصحراوية أجنحة لتستطيع أن تعبر الصحاري الجرداء بحثاً عن ماء وعن ظروف إنبات مواتية .

وهو يزود بيضة البعوضة بكيسين للطفو لتطفو على الماء لحظة وضعها ولا تغرق .

وما كان من الممكن للبعوضة أن تدرك قوانين أرشميدس للطفو فتصنع لبيضها تلك الأكياس .

وإنما هو العقل الكلي الشامل المحيط الذي خلق . . هو الذي يزود كل مخلوق بأسباب حياته . . وهو خالق متعال على مخلوقاته . يعلم ما لا تعلم ويقدر على ما لا تقدر ويرى ما لا ترى .

فهو واحد أحد قادر عالم محيط سميع بصير خبير . . وهو متعال يعطي الصفات ولا تحيط به صفات .

* * *

والصلة دائماً معقودة بين هذا الخالق ومخلوقاته فهو أقرب إليها من دمها الذى يجرى فيها .

وهو المبدع الذى عزف بإبداع هذه المعزوفة الكونية الرائعة .

وهو العادل الذى أحكم قوانينها وأقامها على نواميس دقيقة لا تخطئ .

وهكذا قدم لى العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن الله .

* * *

أما القول بأزلية الوجود لأن العدم معدوم والوجود موجود ، فهو جدل لفظى لا يقوم إلا على اللعب بالألفاظ .

والعدم فى واقع الأمر غير معدوم .

وقيام العدم فى التصور والفكر ينفى كونه معدوماً .

والعدم هو على الأكثر نفى لما نعلم ولكنه ليس نفياً مطلقاً مساوياً للمحو المطلق . وفكرة العدم المطلق فرضية مثل فرضية الصفر الرياضى . . ولايصح الخلط بين الافتراض والواقع ولا يصح تحميل الواقع فرضاً نظرياً ، فنقول اعتسافاً إن العدم معدوم ، ونعتبر أن هذا الكلام قضية وجودية نبنى عليها أحكاماً فى الواقع . . هذا تناقض صريح وسفسطة جدلية . .

وبالمثل القول بأن الوجود موجود . . هنا نجد نفس الخلط . . فالوجود تجريد ذهنى والموجود واقع حسى . .

وكلمة العدم وكلمة الوجود تجريدات ذهنية كالصفر، واللانهاية لا يصح أن نخلط بينها و بين الواقع الملموس المتعين،والكون الكائن المحدد أمام الحواس .

* * *

الكون إذن ليس أزلياً . . وإنما هو كون مخلوق كان له بدء بدليل آخر من قاموس العلم هو ما نعرف باسم « القانون الثانى للديناميكا الحرارية » .

ويقرر هذا القانون أن الحرارة تنتقل من الساخن إلى البارد . . من الحرارة الأعلى إلى الحرارة الأدنى حتى يتعادل المستويان فيتوقف التبادل الحرارى .

ولو كان الكون أبدياً أزلياً بدون ابتداء لكان التبادل الحرارى قد توقف فى تلك الآباد الطويلة المتاحة وبالتالى لتوقفت كل صور الحياة . . ولبردت النجوم وصارت بدرجة حرارة الصقيع والخواء حولها وانتهى كل شئ .

إن هذا القانون هو ذاته دليل على أن الكون كان له بدء .

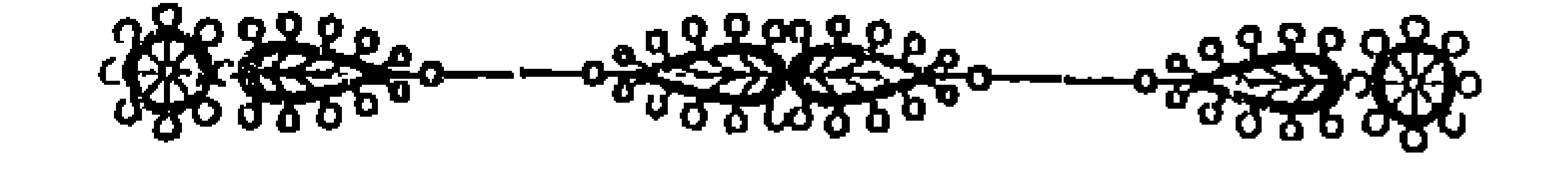
والقيامة الصغرى التى نراها حولنا فى موت الحضارات وموت الأفراد وموت النجوم وموت الحيوان والنبات وتناهى اللحظات والحقب والدهور هى لمحة أخرى تدلنا على القيامة الكبرى التى لابد أن ينتهى إليها الكون .

إن العلم الحق لم يكن أبداً مناقضاً للدين بل إنه دال عليه مؤكد لمعناه .

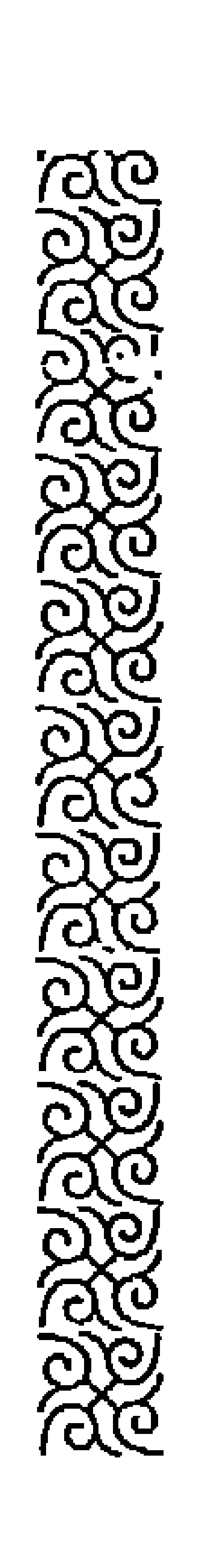
وإنما نصف العلم هو الذى يوقع العقل فى الشبهة والشك . . وبخاصة إذا كان ذلك العقل مزهوًّا بنفسه معتدًّا بعقلانيته . . وبخاصة إذا دارت المعركة فى عصر يتصور فيه العقل أنه كل شىء . . وإذا حاصرت الإنسان شواهد حضارة مادية صارخة تزأر فيها الطائرات وسفن الفضاء والأقمار الصناعية . . هاتفة كل لحظة .

أنا المادة

أنا كل شىء



الجسد



كلنا من أصل واحد . .

من خامة واحدة .

ولكن لكل منا فرديته الخاصة به .

والفرق بين مخلوق ومخلوق ليس مجرد فرق كمى فى الذرات ، وإنما هناك فرق أكبر وأعقد فى العلاقات بين تلك الذرات وفى كيفيات الترابط بينها .

ونعلم الآن من أمر توليف الجينات الوراثية فى الخلية الأولى أن جميع الأجنة الآدمية يتم توليفها من أكثر من عشرين حرفاً كيميائياً من بروتين DNA وRNA كما تتألف جميع الكتب والمؤلفات من الحروف الأبجدية ، فيكون لكل كتاب روحه وشخصيته ونوعيته كمخلوق مستقل متفرد مع أن جميع الكتب مؤلفة من الحروف نفسها .

ويبلغ هذا التفرد لدرجة أن ينفرد كل واحد ببصمة خاصة مختلفة . لا تتشابه بصمتان لاثنين ولو كانا توأمين منذ بدء الخليقة إلى الآن برغم آلاف آلاف وملايين ملايين الملايين من الأفراد .

ونعلم الآن أن لكل جسد شفرة كيميائية خاصة به بحيث يصبح من العسير

وأحياناً من المستحيل ترقيع جسد بقطعة من جسد آخر . . فما يلبث أن يرفض الجسد الرقعة الغريبة كما لو كانت ميكروباً أو جسماً أجنبياً أو استعماراً .

وهذه هي كبرى المشكلات فى جراحات الترقيع ونقل الأعضاء .

وأطول مدة عاشها قلب منقول كانت عشرين شهراً وتحت مطر مستمر من حقن التخدير والأقراص المضادة للحساسية لمنع الجسد من رفض العضو الغريب .

ومعنى هذا أن الفردية والتفرد حقيقة جوهرية يشهد بها العلم . . وهى حقيقة لم ألتفت إليها فى بداية تطورى الفكرى . واعتقدت بأن الجوهرى والباقى هو المجتمع وليس الفرد . . الإنسان وليس فلاناً ، الحياة وليس الأحياء . . الوجود لا الموجودات ، الكل وليس الآحاد .

وهذا أثر من آثار فلسفة وحدة الوجود الهندية القائلة إن الوجود هو الله وهو الباقى أما جميع الموجودات فهى MAYA والمايا هى الوهم الزائل . وكل فرد مصيره إلى فناء حقيقى لا بعث بعده ، واعتقدت بأن خلود الفرد هو بقدر ما يترك لأولاده من توجيه وتربية وعلوم ومعارف .

أما هو ذاته فإنه ينتهى إلى التراب إلى غير عودة .

نصيبنا من الخلود هو ما نضيفه إلى وعاء الكل .

أما شخوصنا وأفرادنا فمصيرها إلى العدم .

وما الشخصية ؟ !

لم أفهم من الشخصية فى البداية أكثر من أنها ردود فعل ظرفية على مواقف مؤقتة . وبالتالى حينما تنتهى هذه الظروف وتتغير الأوقات لا يبقى من هذه الشخصية شىء . . ومآلها أن تتفكك بالشيخوخة نتيجة تفكك ألياف الترابط الموجودة بالمخ .

وحين تفسد الأعصاب وتفنى بالموت تفنى الذات الخاصة بها .

اعتقدت أن الشخصية ليست سوى انفصال محدد لصفات معينة بتأثير تجارب حية وأفعال منعكسة عصبية . . بعضها موروث فى شكل غرائز وبعضها مكتسب عن طريق الممارسة الحسية . . وهذه الممارسة تسجل فى المخ وتنطبع على الذاكرة . فإذا انتهى المخ وتعفنت خلايا الذاكرة فلا محل لافتراض بقاء آخر روحانى لهذا الترابط المادى البحت .

بهذا الفهم المادى المسطح تصورت الإنسان فى البداية ، وكنت أقول لنفسى إن الشخصية ليست شيئاً واحداً وإنما هى سيل من الشخصيات المختلفة لا تنقطع عن الجريان . . فشخصيتى فى سن العاشرة غيرها فى سن العشرين غيرها فى سن الثلاثين . . وفى كل لحظة هناك شىء يضاف إلى نفسى وشىء ينقص منها . . فأية واحدة من هذه النفوس سوف تبعث وتعاقب ؟

وهؤلاء المصابون بانقسام الشخصية أيهما سوف يذهب إلى العالم الآخر الدكتور جيكل أم مستر هايد ؟

ونسيت بهذا التلاعب اللفظى الحقيقة الأولية البسيطة أننا حينما نطبع من الكتاب طبعة ثانية فإننا لا نطبع صفحة أو فصلاً،وإنما نطبعه كله فى أصوله ليصدر كله فى أصوله .

وهكذا يكون بعث الروح ككل بكل فصولها وأصولها كما تنبت البذرة من ظلام الأرض حاوية لكل إمكانيات الفروع والأوراق والثمار.

ولكن النظرة المادية التى تميل بطبيعتها إلى التحليل والتشريح والتقطيع كانت هى الغالبة طول الوقت ولهذا كانت تغيب عنى دائماً صورة الأمور فى كليتها .

وكنت أتصور أنى يمكن أن أفهم الروح إذا شرحت الجسد إذ لا فرق بين الاثنين .

الروح هى البدن

والعقل هو المخ
والشخصية هى ردود الفعل ومجموع الأفعال المنعكسة
والعاطفة فى نهاية الأمر جوع جسمانى .

ونقف الآن وقفة طويلة لنسأل : هل صحيح أن النفس ماهى إلا مجرد حوافز الجوع والجنس ومجموعة الاستشعارات التى يدرك بها الجسد ما يحتاجه ؟

لو قلنا هذا فنحن أمام تفسير مادى متهافت فما هكذا حقيقة النفس ولا حقيقة الإنسان . . وأعود إلى صفحات من كتاب لغز الموت ولغز الحياة حيث ناقشت الموضوع بالتفصيل .

إن الإنسان ليضحى بلقمته وبيته وفراشه الدافئ فى سبيل أهداف ومثل وغايات شديدة التجريد كالعدل والحق والخير والحرية . . فأين حوافز الجوع والجنس هنا ؟ . . والمحارب المقاتل فى الميدان الذى يضحى بنفسه على مدفعه فى سبيل غـد لم يأت بعـد . . أين هو من التفسير المادى ؟ إننا أمام إثبات قاطع بأن النفس والذات حقيقة متجاوزة وعالية على الجسد وليست مجرد احتياجات الجسد الحسية معكوسة فى مرآة داخلية .

تلك الإرادة الهائلة التى تدوس على الجسد وتضحى به هى حقيقة متجاوزة عالية بطبيعتها وآمرة ومهيمنة على الجسد وليست للجسد تبعاً وذيلا .

وإذا كنت أنا الجسد فكيف أتحكم فى الجسد وأخضعه ؟
وإذا كنت أنا الجوع فكيف أتحكم فى الجوع ؟

إن مجرد الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هى الشهادة الكاشفة عن ذلك العنصر المتعالى والمفارق الذى تتألف منه الذات الإنسانية .

عن طريق النفس أتحكم فى الجسد .
وعن طريق العقل أتحكم فى النفس .

وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده .

هذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه هو الإثبات الواقعى الذى يقودنا إلى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه وليست ذيلا وتابعاً تموت بموته .

والذى يقول إن الإنسان مجموعة وظائف فسيولوجية مادية لا غير عليه أن يفسر لنا أين يذهب ذلك الإنسان فى لحظة النوم .

إن جميع الوظائف الفسيولوجية قائمة ومستمرة فى أثناء النوم . وجميع الأفعال المنعكسة واللاإرادية تحدث بانتظام . فالقلب يدق والنفس يتردد والغدد تفرز والأحشاء تتلوى والأعضاء التناسلية تهتاج والذراع ينقبض لشكة الدبوس . . ومع ذلك فنحن أمام رجل نائم أشبه بشجرة . . مجرد شجرة . . أو حياة بدائية لا تختلف عن الحياة الحشرية . فأين الإنسان ؟

إن النوم ثم اليقظة وهو النموذج المصغر للموت ثم البعث،يكشف لنا مرة أخرى عن ذلك العنصر المتعالى الذى يخلق بحضوره فى تلك الجثة النائمة فجأة وبلا مقدمات هتلر أو نيرون فإذا بذلك الممدد كالثور الهامد يصحو ليقتل ويغزو ويسحق ويمحق وإن الفرق لهائل أكبر من أن يفسر بتغير مادى يتم فى لحظات .

والماديون يقولون إن النفس حقيقة موضوعية وبالتالى هى مادة .

ونحن نسأل كيف تكون النفس موضوعاً ؟ وموضوع بالنسبة لمن . . ؟

موضوع بالنسبة للآخرين ؟ ! وكيف ؟ ! والآخرون لا يرونها ولا يدركون وجودها إلا استنباطاً من ظواهر السلوك . . وهى ظواهر أغلبها كاذب . . فكل منا يمثل على الناس بل يمثل على نفسه وسلوكه الظاهر قلما يدل عليه .

أم هى موضوع بالنسبة لصاحبها ؟

وكل منا لو اتخذ نفسه موضوعاً فإنها تبرد وتستحيل تحت مشرط التحليل

إلى جثة ، وتستخفى عليه وتهرب من يديه لأنها لا يمكن أن تكون موضوعاً ولا أن توضع تحت مجهر مثل ورقة شجرة ، لأن جوهرها بالدرجة الأولى فى ذاتيتها ، وحقيقتها أنها الوجه الآخر من الصورة فهى الذات فى مقابل الجسد الذى هو موضوع . . وكلا القطبين الذات والموضوع هما وجها الحقيقة . . فإذا عرفنا المادة بأنها كل ما هو موضوعى فلا بد من الاعتراف بأن هناك فى الوجود شيئاً آخر غير المادة هو الوجه الآخر من الحقيقة الذى هو الذات .

وتقودنا عملية الإدراك إلى إثبات أكيد بأن هناك شيئين فى كل لحظة . . الشىء المدرك . والنفس المدركة خارجه .

وما كنا نستطيع إدراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمنى المستمر .

ولو كان إدراكنا يقفز مع عقرب الثوانى كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثوانى أبداً . . ولانصرم إدراكنا كما تنصرم الثوانى بدون أن يلاحظ شيئاً .

وإنه لقانون معروف إن الحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها .

لا يمكن أن تدرك الحركة وأنت تتحرك معها فى الفلك نفسه . . وإنما لا بد لك من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها . . ولهذا تأتى عليك لحظة وأنت فى أسانسير متحرك لا تستطيع أن تعرف هل هو واقف أم متحرك لأنك أصبحت قطعة واحدة معه فى حركته . . لاتستطيع إدراك هذه الحركة إلا إذا نظرت من باب الأسانسير إلى الرصيف الثابت فى الخارج .

وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وأنت فوقها ولكن يمكنك رصدها من القمر أو الأرض . . كما أنه لا يمكنك رصد الأرض وأنت تسكن عليها وإنما تستطيع رصدها من القمر .

وهكذا دائماً . . لا تستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا خرجت خارجها ولاحظتها كموضوع . .

وأنت إذ تدرك مرور الزمن لابد أن تكون ذاتك المدركة خارج الزمن .

وهى نتيجة مذهلة تثبت لنا الروح أو الذات المدركة كوجود مستقل متعال على الزمن ومتجاوز له وخارج عنه .

فها نحن أولاء أمام حقيقة إنسانية جزء منها غارق فى الزمن ينصرم مع الزمن ويكبر معه ويشيخ معه ويهرم معه (وهو الجسد) ، وجزء منها خارج عن هذا الزمن يلاحظه من عتبة سكون ويدركه دون أن يتورط فيه ولهذا فهو لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم . . ويوم يسقط الجسد تراباً سوف يظل هو على حاله حيًّا حياته الخاصة غير الزمنية . . ولا نجد لهذا الجزء اسماً غير الاسم الذى أطلقته الأديان وهو الروح .

وكل منا يستطيع أن يلمس هذا الوجود الروحى بداخله . . ويدرك أنه وجود مغاير فى نوعيته للوجود الخارجى النابض المتغير الذى يتدفق حولنا فى شلال من التغيرات .

كل منا يستطيع أن يحس بداخله حالة حضور وديمومة وامتثال وشخوص وكينونة حاضرة دائماً ومغايرة تماماً للوجود المادى المتغير المتقلب النابض مع الزمن خارجه .

هذه الحالة الداخلية التى ندركها فى لحظات الصحو الداخلى والتى أسميتها حالة « حضور » . . هى المفتاح الذى يقودنا إلى الوجود الروحى بداخلنا ويضع يدنا على هذا اللغز الذى اسمه الروح . . أو المطلق . . أو المجرد .

ونحن حينما ندرك الجمال ونميزه من القبح وندرك الحق ونميزه من الباطل وندرك العدل ونميزه من الظلم . . فنحن فى كل مرة نقيس بمعيار . . بمسطرة منفصلة عن الحادث الذى نقيسه . . فنحن إذن نقيس من العتبة نفسها . . عتبة الروح . . فالوجود الروحى يمثله فينا أيضاً الضمير ويدل عليه أيضاً

الإحساس بالجمال . . وتدل عليه الحاسة الخفية التيتميز الحق من الباطل والزائف من الصحيح . . وتدل عليه الحرية الداخلية . . فالروح هى منطقة السريرة والحرية الطليقة والاختيار والتمييز .

وحينما نعيش حياتنا لا نضع اعتباراً للموت ونتصرف فى كل لحظة دون أن نحسب حساباً للموت . . وننظر إلى الموت وكأنه اللامعقول . . فنحن فى الواقع نفكر ونتصرف بهذه الأنا العميقة التى هى الروح والتى لا تعرف الموت بطبيعتها .

فالموت بالنسبة للروح التى تعيش خارج منطقة الزمن هو بالنسبة لها . . لا أكثر من تغيير ثوب . . لا أكثر من انتقال . .

أما الموت كفناء وكعدم فهو أمر لا تعرفه ، فهى أبداً ودائماً كانت فى حالة حضور وشخوص . . إنها كانت دائماً هنا .

إنها الحضرة المستمرة التى لم ولا يطرأ عليها طارئ الزوال . وكل ما سوف يحدث لها بالموت . . إنها سوف تخلع الثوب الجسدى الترابى . . وكما يقول الصوفية تلبس الثوب البرزخى . . ثم تخلع الثوب البرزخى لتلبس الثوب الملكوتى . . ثم تخلع الثوب الملكوتى لتلبس الثوب الجبروتى . . كادحة من درجة إلى درجة ارتفاعاً إلى خالقها . . كل روح ترتفع بقدر صفائها وشفافيتها وقدرتها على التحليق . . على حين تتهابط الأرواح الكثيفة إلى ظلمات سحيقة وتنقضى عليها الآباد وهى تحاول الخلاص .

وأترك الصوفيين لمشاهداتهم حتى لا نضيع معهم فى التيه،وليس هدفى من هذه الدراسة عبور حاجز الموت لمعرفة ما وراءه،فهذا طمع فى غير مطمع ورغبة فى مستحيل .

ويكفينى أن أقف بالقارئ ليتأمل نفسه ويكتشف ذاته العميقة الحاكمة الآمرة المتعالية على جسده الترابى . . تلكالتى أسميتها الروح . . والتىاستدللت

عليها بأبلغ دلالة . . بشعور الحضرة التى يشعر بها كل منا فى داخل نفسه .

تلك الحضرة المستمرة التى لا يطرأ عليها طارئ الزوال ولا تهب عليها رياح التغير وكأنها العين المفتوحة داخلنا على الدوام .

ذلك الصحو الداخلى .

ذلك النور غير المرئى فى نفوسنا والذى نرى على ضوئه طريق الحق ونعرف القبح من الجمال والخير من الشر .

تلك العتبة التى نرصد من فوقها حركة الزمن وندرك مروره . . ونرى مرور الأشياء وندرك حركتها .

تلك النقطة فى داخل الدائرة .

المركز الذى تدور حوله أحداثنا الدنيوية الزمنية وهو شاخص فى مكانه لا يتحرك ولا ينصرم له وجود .

الروح . .

حقيقتنا المطلقة التى هى برغم ذلك لغز .

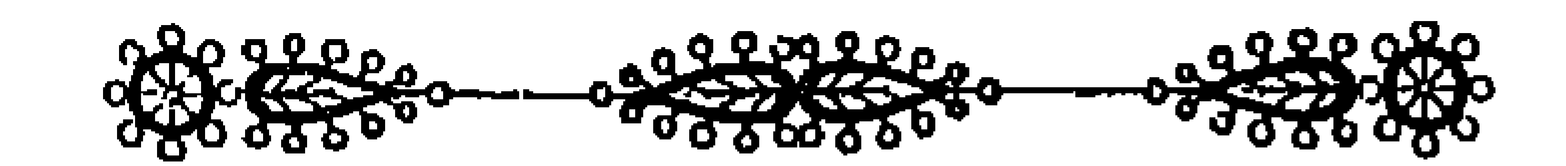
هل الروح أبدية . . أو أن لها زمناً آخر ذا تقويم مختلف . . اليوم فيه بألف سنة ؟

وما العلاقة بين الروح والجسد ؟

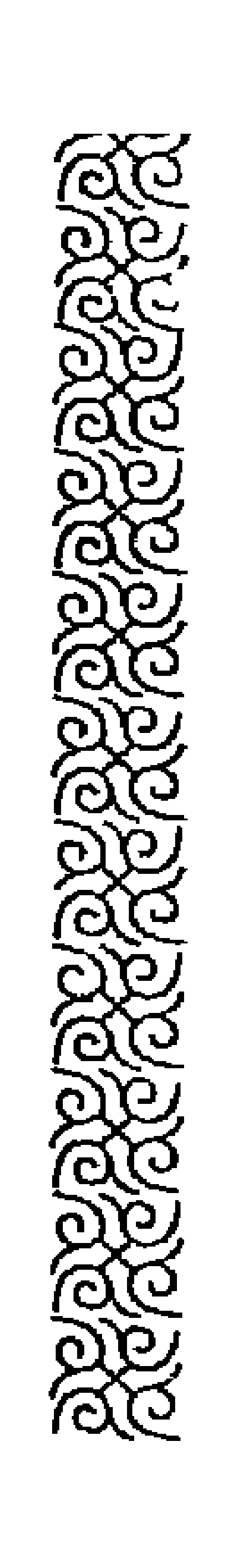
وما العلاقة بين العقل والمخ ؟

وما العلاقة بين الذاكرة والتحصيل واستظهار العلوم ؟

إنه موضوع آخر له شرح يطول .



الرّوح



خطر لى ذات مساء أن أقوم ببحث فى سراديب ذاكرتى . . فأرصد فى ورقة كل ما أحفظه من أرقام . . رقم الباسبور ورقم العربة ورقم الشقة ورقم البطاقة العائلية وتليفونات من أعرف من الأصدقاء والزملاء وتليفونات المصالح والجرائد وأرقام جدول الضرب التى أحفظها غيباً وعمليات الجمع والطرح والقسمة الأولية التى أعرفها بالبداهة وتواريخ ميلادى وميلاد أولادى وثوابت الرياضة والطبيعة مثل النسبة التقريبية وسرعة الضوء وسرعة الصوت ومجموع زوايا المثلث ودرجة غليان الماء وما تعلمته فى كلية الطب عن نسبة سكر الدم وعدد الكريات الحمراء وعدد الكريات البيضاء وحجم الدم وسرعة النبض وسرعة التنفس وجرعات العقاقير . . وفى لحظات تجمعت تحت يدى عدة صفحات من مئات الأرقام . . تداعت فى ذهنى ولمعت كالبرق وكأنى حاسب إلكترونى وكان المشهد مذهلا .

كيف أحفظ هذا الكم الهائل من الأعداد . . كل عدد يبلغ طوله ستة أو سبعة أرقام ؟

وأين تختفى هذه الأرقام فى تلافيف المخ ؟

وكيف يتم استدعاؤها فتلمع فى الوعى كالبرق الخاطف ؟

وبأى أسلوب تصطف هذه الأرقام فى أعداد متمايزة . . كل عدد له مذكرة تفسيرية ملحقة به تشرح دلالته ومعناه ؟ وكيف تتراكم المئات والمئات من هذه الأرقام فى ذاكرتنا ولا تختلط ولا يطمس بعضها بعضاً ؟

وغير الأرقام . . هناك الأسماء والاصطلاحات والكلمات . . والأشكال . والوجوه . . تزدحم بها رأسنا . . وهناك معالم الطبيعة التى طفنا بها والأماكن التى زرناها . . وهناك الروائح . . ومع كل رائحة صورة لامرأة عرفناها أو مشهد نذكره ولواعج وأشواق وقصص وسيناريو من آلاف اللقطات . . وهناك الطعوم . . والنكهات . يأتى الطعم فى الفم فيسيل اللعاب شوقاً أو يتحرك الغثيان اشمئزازاً . . ومع كل طعم . . يجرى شريط يحكى عن وليمة دسمة ذات يوم أو جرعة دواء مريرة ومرض طويل ممض وأوجاع أليمة . . حتى لمسة النسيم الحريرية ورائحة أصداف الشاطئ تحفظها لنا الذاكرة فتهب علينا لفحات الهواء الرطيب مع ذكراها وكأننا نعيشها من جديد .

حتى الأصوات والهمسات والوشوشات والصخب والصراخ والضجيج والعويل والنشيج .

وفاصل من موسيقى .

ومقطع من أغنية . .

ولطمة على وجه . .

وقرقعة عصاً على الظهر . .

وحشرجة ألم . .

كل هذا تحفظه الذاكرة وتسجله فى دقة شديدة وأمانة ومعه بطاقة بالتاريخ والمناسبة وأسماء الأشخاص وظروف الواقعة ومحضر بالأقوال . . معجزة . . اسمها الذاكرة .

إن معنا رقيباً حقيقياً يكتب بالورقة والقلم كل دبة نمل فى قلوبنا .

وما نتخيل أحياناً أننا نسيناه نكتشف أننا لم ننسه وأنه موجود يظهر لنا فجأة فى لحظة استرخاء أو حلم أو بعد كأس أو فى عيادة طبيب نفسى وأحياناً يظهر فى زلة لسان أو خطأ إملائى .

لا شىء ينسى أبداً . . ولا شىء يضيع . . والماضى مكتوب بالفعل لحظة بلحظة ودقة قلب بدقة قلب .

والسؤال الكبير بل اللغز المحير هو . . أين توجد هذه الصور . . أين هذا الأرشيف السرى ؟

وهو سؤال حاول أن يجيب عليه أكثر من عالم وأكثر من فيلسوف .

الفلاسفة الماديون قالوا إن الذاكرة فى المخ . . وإنها ليست أكثر من تغيرات كيميائية كهربائية تحدث لمادة المخ نتيجة الفعل العصبى للحوادث تماماً كما يحدث لشريط ريكوردر عند التسجيل وإن هذه اللفائف المسجلة تحفظ بالمخ وإنها تدور تلقائياً لحظة محاولة التذكر فتعيد ما كان فى أمانة ودقة .

الذاكرة مجرد نقش وحفر على مادة الخلايا .

ومصيرها أن تبلى وتتآكل كما تبلى النقوش وتتآكل وينتهى شأنها حينما ينتهى الإنسان بالموت وتتآكل خلاياه .

رأى مريح وسهل ولكنه أوقع أصحابه فى مطب لم يستطيعوا الخروج منه .

فإذا كانت الذاكرة هى مجرد طارئ مادى يطرأ على مادة الخلايا فينبغى أن تتلف الذاكرة لأى تلف مادى مناظر فى مادة الخلايا المخية . . وينبغى أن يكون هناك توازٍ بين الحادثين . . كل نقص فى ذاكرة معينة لابد أن يقابله تلف فى الخلايا المختصة المقابلة . . وهو أمر لا يشاهد فى إصابات المخ وأمراضه . . بل ما يشاهد هو العكس .

يصاب مركز الكلمات فلا تصاب ذاكرة الكلمات بأى تلف ، وإنما الذى يحدث هو عاهة فى النطق . . فى الأداء الحركى للعضلات التى تنطق الكلمات .

إن الموتور هو الذى يتلف بتلف الخلايا . . أما الذاكرة . . أما صورة الكلمات فى الذهن فتظل سليمة .

وهذا دليل على أن وظيفة المخ ليست الذاكرة ولا التذكر .

وإنما المخ هو مجرد سنترال يعطى التوصيلة . هو مجرد أداة تعبر به الكلمة عن نفسها فى وسط مادى فتصبح صوتاً مسموعاً . . كما يفعل الراديو حينما يحول الموجة اللاسلكية إلى نبض كهربائى مسموع . . فإذا أصيب الراديو بعطل فلا يكون معنى هذا العطل أن تتعطل الموجة فى الأثير . . وإنما فقط يحدث شلل فى جهاز النطق فى الراديو . أما الموجة فتظل سليمة على حالها يمكن أن يلتقطها راديو آخر سليم .

وهذا حال الذاكرة . . فهى صور وأفكار ورؤى مستقلة مسكنها ومستقرها الروح وليس المخ ولا الجسد بحال . . وما المخ إلا وسيلة لنقل هذه الصور لتصبح كلمات منطوقة مسموعة فى عالم مادى .

فإذا أصيب المخ بتلف . . يصاب النطق بالتلف ولا تصاب الذاكرة لأن الذاكرة حكمها حكم الروح ولا يجرى عليها ما يجرى على الجسد .

التوازى مفقود بين الاثنين مما يدل على أننا أمام مستويين (جسد وروح) لا مستوى واحد اسمه المادة .

وفى حوادث النسيان المرحلى . . الذى تنسى فيه مرحلة زمنية بعينها (وهو الموضوع المحبب عند مؤلفى السينما المصريين) . . ينسى المصاب فترة زمنية بعينها فتمحى تماماً من وعيه وتكشط من ذاكرته .

وكان يتحتم تبعاً للنظرية المادية أن نعثر على تلف مخى جزئى مقابل ومناظر للفترة المنسية .

لكن الملاحظ أن أغلب تلك الحالات هى حالات صدمة نفسية عامة وليست تلفاً جزئياً محدداً .

مرة أخرى نجد أن التوازى مفقود بين حجم الحادث وبين حجم التلف المادى .

وفى حالات التلف المادى الشديد للمخ نتيجة الكسور أو الالتهابات أو النمو السرطانى ، حينما يبدأ النسيان الكامل يلاحظ دائماً أن هذا النسيان يتخذ نظاماً خاصاً فتنسى فى البداية أسماء الأعلام وآخر ما ينسى هى الكلمات الدالة على أفعال .

وهذا التسلسل المنتظم فى النسيان فى مقابل إصابة غير منتظمة وفى مقابل تلف مشوش أصاب المخ كيفما اتفق ، هو مرة أخرى عدم تـواز له معنى . . فهنا إصابة فى الذاكرة لا علاقة لها من حيث المدى والكم والنظام بالإصابة المادية للمخ .

وهكذا تتحطم النظرية المادية للذاكرة على حائط مسدود .

ونجد أنفسنا أمام ظاهرة متعالية على الجسد وعلى خلايا المخ .

وسوف تموت وتتعفن الخلايا المخية وتظل الذاكرة شاخصة حية بتفصيلاتها ودقائقها تذكرنا فى حياتنا الروحية الثانية بكل فعل فعلناه .

ولم يكن الجسد إلا جهازاً تنفيذياً للفعل وللإفصاح عن النوايا فى عالم الدنيا المادى . . كان مجرد أداة للروح ومطية لها .

لم يكن المخ إلا سنترالا . . وكابلات توصيل .

وكل دوره هو أن يعطى التوصيلة من عالم الروح إلى عالم المادة أو كما يقول برجسون DONNER LA COMMUNICATION . . . .
. . . يعطى الخط .

كابلات الأعصاب تنقل مكنون الروح وتحوله إلى نبض إلكترونى

لتنطق به عضلات اللسان على الطرف الآخر . . كما يفعل الراديو بالموجة اللاسلكية وهكذا نتبادل الكلام كأجساد فى عالم مادى . . فإذا ماتت أجسادنا عدنا أرواحاً . . لنتذاكر ما فعلناه فى دنيانا لحظة بلحظة حيث كل حرف وكل فعل مسجل .

بل إن هناك نظريات علمية تمضى لأكثر من هذا فترى أن التحصيل هو فى ذاته عملية تذكر لعلم قديم مكنوز ومسطور فى الروح . . وليس تعلماً من السبورة . . فنحن لا نكتشف أن ٢ × ٢ = ٤ من عدم ، وإنما نحن نولد بها . . وكل ما نفعله أننا نتذكرها . . وكذلك بداهات الرياضة والهندسة والمنطق . . كلها بداهات نولد بها مكنوزة فينا . . وكل ما يحدث أننا نتذكرها تذكرنا بها الخبرة الدنيوية كل لحظة .

وبالمثل شخصيتنا . . نولد بها مسطورة فى روحنا . . وكل ما يحدث أن الواقع الدنيوى يقدم المناسبات والملابسات والقالب المادى لتفصح هذه الشخصية عن خيرها وشرها . . فيسجل عليها فعلها .

والتسجيل هو الأمر الجديد الذى يتم فى الدنيا .

الإنتقال من حالة النية إلى حالة التلبس .

وهذا ما تعبر عنه الأديان بأن يحق القول على المذنب بعد الابتلاء والاختبار فى الدنيا . . فتحق عليه الضلالة وتلزمه رتبته .

وهو أمر قد سبق إليه علم الله . . علم الحصر لا علم الإلزام . . فالله لا يلزم أحداً بخطيئة ولا يقهره على شر . . وإنما كل واحد يتصرف على وفاق طبيعته الداخلية فيكون فعله هو ذاته . . وليس فى ذلك أى معنى من معانى الجبر . . لأن هذه الطبيعة الداخلية هى التى نسميها أحياناً الضمير وأحياناً السريرة وأحياناً الفؤاد ويسميها الله « السر » .

« يعلم السر وأخفى » .

ونقول عنها فى تعبيراتنا الشعبية عند الموت « طلع السر الإلهى » أى صعدت الروح إلى بارئها . .

هذا السر المطلسم هو إبتداء حر ومبادرة أعتقها الله من كل القيود ليكون فعلها هو ذاتها وليكون هواها دالاً عليها .

ومن هنا لا يصح القول بالحتميات فى المجال الإنسانى أمثال حتمية الصراع الطبقى والجبرية التاريخية لأن الإنسان مجال حر وليس مسماراً أو ترساً فى ماكينة .

وكما لا يمكن التنبؤ بما يأتى به الغد فى حياة فرد فإنه يستحيل القول بالحتم أو الجبر فى مجال المجتمعات والتاريخ . . وكل ما يمكن القول به هو الترجيح والاحتمال بناء على مقدمات إحصائية . . وهو ترجيح يخطئ ويصيب ويحدث فيه التفاوت فى طرفيه . . فمعدل عمر الإنسان فى إنجلترا مثلاً هو ستون سنة . . وهذا المعدل معدل إحصائى مأخوذ من متوسطات أرقام . . وهو غير ملزم بالنسبة للفرد ، فقد يعيش فرد مثل برناردشو فى إنجلترا أكثر من تسعين سنة ويتجاوز المعدل . وقد يموت فى سن العشرين فى حادثة . وقد يموت وهو طفل بمرض معد . . ثم إن المعدل ذاته قابل للتذبذب من طرفيه صعوداً وهبوطاً من سنة لأخرى . . فلا يصح القول بالحتمية والجبرية فى هذا الموضوع . . ولا يجوز إخضاع المجال الإنسانى سواء كان فرداً أو مجتمعاً أو تاريخاً لقالب نظرى أو معادلة أو حسبة إحصائية أو فرض فلسفى .

إنما تأتى فكرة الحتمية الخاطئة من التصور الخاطئ للإنسان على أنه جسد بلا نفس وبلا روح وبلا عقل . . واعتبار النفس والعقل مجرد مجموعة الوظائف العليا للجهاز العصبى .

ومن الواقع المشاهد من خضوع الجسم للقوانين الفسيولوجية يستنتج المفكر المادى أن الإنسان والإنسانية بأسرها مغلولة فى القوانين المادية .

وهكذا يجعل من الإنسان كتلة مادية أشبه بكتلة القمر محكومة فى دورانها حول الأرض والشمس بالحتميات الفلكية .

وينسى أن الإنسان يعيش فى مستويين .

مستوى الزمن الخارجى الموضوعى المادى . . زمن الساعة . . وفى هذا الزمن يرتبط بالمواعيد والضرورات الاجتماعية ويعيش فى أسر القوانين والحتميات .

ومستوى زمنه الخاص الداخلى . . زمن الشعور وزمن الحلم . . وفى هذا المستوى يعيش حياة حرة بالفعل . . فيفكر ويحلم ويبتكر ويخترع ويقف من كل المجتمع والتاريخ موقف الثورة . . بل يستطيع أن ينقل هذه الثورة الداخلية إلى فعل خارجى فيقلب المجتمع ويغير التاريخ من أساسه كما حدث فى كل الثورات التقدمية .

هذه الثنائية هى صفة ينفرد بها الإنسان .

وهذه الحياة الداخلية الحرة يختص بها الإنسان دون الجماد .

وهذه النفس التى يملكها تتصف بصفات مختلفة مغايرة لصفات الجماد . . فهنا نحن أمام وحدة لا امتداد لها فى المكان . .

هى الـ « أنا » تتصف بالحضور والديمومة والشخوص والكينونة والمثول الدائم فى الوعى . . ثم هى تفرض نفسها على الواقع الخارجى وتغيره . . وتفرض نفسها على الجسد وتحكمه وتقوده وتعلو على ضروراته . . فتفرض عليه الصوم والحرمان اختياراً . بل قد تقوده إلى الموت فداء وتضحية . . مثل هذه النفس لا يمكن أن تكون مجرد ناتج ثانوى من نواتج الجسد وذيلا تابعاً له ومادة تطورت عنه . مثل هذه النظريات المادية لا تفسر لنا شيئاً . . وإنما لا بد لنا أن نسلم أن هذه النفس عالية على الجسد متعالية عليه وأنها من جوهر مفارق لجوهر الجسد وحاكم عليه . . فهى فى واقع الأمر تستخدم الجسد كأداة لأغراضها

ومطية لأهدافها كما يستخدم العقل المخ مجرد توصيلة أو سنترال .

ولا بد أن يتداعى إلى ذهننا الاحتمال البديهى من أن هذه النفس لا يمكن أن يجرى عليها ما يجرى على الجسد من موت وتآكل وتعفن بحكم جوهرها الذى تشعر به متصفاً بالحضور والديمومة والشخوص فى الوعى طول الوقت . . فلا هى تتآكل كما يتآكل الجسد ولا هى تقع كما يقع الشعر ولا هى تبلى كما تبلى الأسنان .

وإنه لأمر بديهى تماماً أن نتصور بقاءها بعد الموت .

فإذا نحن تأملنا ما يصاحب أفعالنا من تردد قبل اختيار القرار ثم شعور بالمسئولية فى أثناء العمل ثم ندم أو راحة بعد تمامه . . فنحن نستنتج أننا أمام حالة مراقبة فطرية وفكرة ملحة بالحساب وبأن هناك خطأ وصواباً . وإننا نعلم بداهة وبالفطرة التى ولدنا بها أن العدل والنظام هو ناموس الوجود وأن المسئولية هى القاعدة .

ويفترض لنا هذا الشعور الفطرى القهرى أن الظالم الذى أفلت من عقاب الأرض والقاتل الذى أفلت من محاسبة القانون البشرى الأرضى . . لا بد أن يعاقب ويحاسب . . لأن العالم الذى نعيش فيه يفصح عن النظام والانضباط من أصغر ذرة إلى أكبر فلك . . والعبث غير موجود إلا فى عقولنا وأحكامنا المنحرفة .

وفكرة العدل والنظام وضرورة العدل تقودنا إلى ضرورة عالم آخر يتم فيه العدل والنظام والمحاسبة .

كل هذا علم نولد به . . وحقيقة تقول بها الفطرة والبداهة .

ولا غرابة فى أن يعترف مفكر غربى ألمانى هو « عمانويل كانت » بهذه الحقيقة فى كتابه « نقد العقل العملى » .

ولا غرابة فى أن يصل إلى هذه النتيجة السليمة دون أن يقرأ قرآناً .

إنها الفطرة والبداهة التى تقوم عليها جميع العلوم .

ولا حاجة لأن يقرأ العقل السليم الكتاب المقدس ليكتشف أن له روحاً وأن له حياة بعد الموت وأن هناك حساباً . . فالفطرة السليمة تضيء لصاحبها الطريق إلى هذه الحقائق .

وهذا العلم الذى نولد به . . وهذه البداهة التى نولد بها . . تقوم شاهدة على جميع العلوم المكتسبة وملزمة لها . . فجميع العلوم المكتسبة يجوز فيها الخطأ والصواب . . أما العلم الذى نولد به فهو جزء من نظام الكون المحكم . . وهو الحقيقة الأولى التى على ضوئها نرى جميع الحقائق الفرعية . . وهى المعيار والمقياس . . وإذا فسد المعيار فسد كل شيء وأصبح كل شيء عبثاً فى عبث وهو أمر غير صحيح .

وإذا اتهمنا البداهة فإن جميع العلوم والمعارف سوف ينسحب عليها الاتهام وسوف تنهدم لأنها تقوم أصلا على البداهات الأولى .

فنحن هنا أمام أصل من أصول المعرفة ومرجع لا يجوز الشك فيه (لأن هذا المرجع شأنه شأن الحياة ذاتها) نحن أمام متن هو لحم المعرفة ودمها .

وكما نأتى إلى الحياة مزودين بعضلات لنتحرك بها وندافع بها عن أنفسنا كذلك نولد مزودين بالبداهات الأولى لنحتكم إليها فى إدراك الحق من الباطل والصواب من الخطأ .

وأعلى درجات المعرفة هى ما يأتيك من داخلك ، فأنت تستطيع أن تدرك وضعك (هل أنت واقف أو جالس أو راقد) دون أن تنظر إلى نفسك . . يأتيك هذا الإدراك وأنت مغمض العينين . . يأتيك من داخلك . . وتقوم هذه المعرفة حجة بالغة على أية مشاهدة .

وحينما تقول . . أنا سعيد . . أنا شقى . . أنا أتألم . . فكلامك يقوم حجة بالغة ولا يجوز تكذيبه بحجة منطقية . . بل إن تناول هذا الأمر بالمنطق هو

تنطع ولجاجة لا معنى لها . . فلا أحد أعرف بحال نفسك من نفسك ذاتها .

وبالمثل شهادة الفطرة وحكم البداهة هى حجة على أعلى مستوى . . وحينما تقول الفطرة والبداهة مؤيدة بالعلم والفكر والتأمل . . حينما تقول بوجود الروح والنفس وبالحرية وبالمسئولية والمحاسبة ، وحينما توحى بالتصرف على أساس أن فى الكون نظاماً . . فنحن هنا أمام حجة على أعلى مستوى من اليقين .

وهو يقين مثل يقين العيان وأكثر . . فالفطرة عضو مثل العين نولد به .

وهو يقين أعلى من يقين العلم . . لأن الصدق العلمى هو صدق إحصائى والنظريات العلمية تستنتج من متوسطات أرقام . . أما حكم البداهة فله صفة القطع والإطلاق ٢ × ٢ = ٤ هى حقيقة مطلقة صادقة صدقاً مطلقاً ، لا يجوز عليها ما يجوز من نسخ وتطور وتغير فى نظريات العلم لأنها مقولة بديهية . ١ + ١ = ٢ مسألة لا تقبل الشك لأنها حقيقة ألقتها إلينا الفطرة من داخلنا وأوحت بها البداهة .

هى معرفة أولى جاءت إلينا مع شهادة الميلاد .

لو أدرك الإنسان هذا لأراح واستراح . . ولوفر على نفسه كثيراً من الجدل والشقشقة والسفسطة والمكابرة فى مسألة الروح والجسد والعقل والمخ والحرية والجبر والمسئولية والحساب ولاكتفى بالإصغاء إلى ما تهمس به فطرته وما يفتى به قلبه وما تشير به بصيرته .

وذرة من الإخلاص أفضل من قناطير من الكتب .

لنصغى إلى صوت نفوسنا وهمس بصائرنا فى إخلاص شديد دون محاولة تشويه ذلك الصوت البكر بحبائل المنطق وشراك الحجج .

وعلى من يشك فى كلامى . . وعلى هواة الجدل والنقاش والمقارعة المنطقية أن يعودوا فيقرءوا مقالى من أوله .

العَـدْل الأزلي



الذى رأى قطة تتلصص على مائدة فى خلسة من أصحابها ثم تمد فمها لتلقف قطعة سمك .

الذى رأى مثل تلك القطة ونظر إلى عينيها وهى تسرق لن ينسى أبداً تلك النظرة التى ملؤها الإحساس بالذنب .

إن القطة وهى الحيوان الأعجم تشعر شعوراً مبهماً أنها ترتكب إثماً . . فإذا لحقها العقاب ونالت ضربة على رأسها فإنها تغض من بصرها وتطأطئ رأسها وكأنها تدرك إدراكاً مبهماً أنها نالت ما تستحق .

هو إحساس الفطرة الأولى الذى ركبه الخالق فى بنية المخلوق . . إنه الحاسة الأخلاقية البدائية نجد أثرها حتى فى الحيوان الأعجم .

والقط إذ يتبرز ثم ينثنى على ما فعل ويهيل عليه التراب حتى يخفيه عن الأنظار .

ذلك الفعل الغريزى يدل على إحساس بالقبح وعلى المبادرة بستر هذا القبح .

وذلك الفعل هو أيضاً فطرة أخلاقية لم تكتسب بالتعلم . . وإنما بهذه

الفطرة ولد كل القطط .

وبالمثل غضبة الجمل بعد تكرار الإهانة من صاحبه وبعد طول الصبر والتحمل . . وكبرياء الأسد وترفعه عن أن يهاجم فريسته غدراً من الخلف وإنما دائماً من الأمام ومواجهة . . ولا يفترس إلا ليأكل . . ولا يفكر فى أكل أو افتراس إلا إذا جاع .

كل هذه أخلاق مفطورة فى الحشوة الحية وفى الحيوان .

ثم الوفاء الزوجى عند الحمّام .

والولاء للجماعة فى الحيوانات التى تتحرك فى قطعان .

نحن أمام الأسس الأولى للضمير . . نكتشفها تحت الجلد وفى الدم لم يعلمها معلم وإنما هى فى الخِلقة .

ونحن إذ نتردد قبل الفعل نتيجة إحساس فطرى بالمسئولية . . ثم نشعر بالعبء فى أثناء الفعل نتيجة تحرى الصواب . . ونشعر بالندم بعد الفعل نتيجة الخطأ .

هذه المشاعر الفطرية التى يشترك فيها المثقف والبدائى والطفل هى دليل على شعور باطن بالقانون والنظام وأن هناك محاسبة . . وأن هناك عدالة . . وأن كل واحد فينا مطالب بالعدالة كما أن له الحق فى أن يطلبها . . وأن هذا شعور مفطور فينا منذ الميلاد جاءنا من الخالق الذى خلقنا ومن طبيعتنا ذاتها .

فإذا نظرنا إلى العالم المادى من الذرات المتناهية فى الصغر إلى المجرات المتناهية فى العظم وجدنا كل شىء يجرى بقوانين وبحساب وانضباط .

حتى الإلكترون لا ينتقل من مدار إلى مدار فى فلك النواة إلا إذا أعطى أو أخذ حزماً من الطاقة تساوى مقادير انتقاله وكأنه راكب فى قطار لا يستطيع أن يستقل القطار إلا إذا دفع ثمن التذكرة .

وميلاد النجوم وموتها له قوانين وأسباب .

وحركة الكواكب فى دولاب الجاذبية لها معادلة .

وتحول المادة إلى طاقة وتحول جسم الشمس إلى نور له معادلة .

وانتقال النور له سرعة .

وكل موجة لها طول ولها ذبذبة ولها سرعة .

كما أن كل معدن له طيف وله خطوط امتصاص مميزة يعرف بها فى جهاز المطياف .

وكل معدن يتمدد بمقدار ويتقلص بمقدار بالحرارة والبرودة . . وكل معدن له كتلة وكثافة ووزن ذرى ووزن جزيئى وثوابت وخواص .

وأينشتين أثبت لنا أن هناك علاقة بين كتلة الجسم وسرعته . . وبين الزمن ونظام الحركة داخل مجموعة متحركة . . وبين الزمان والمكان .

والذى يفرق المواد إلى جوامد وسوائل وغازات هو معدل السرعة بين جزيئاتها .

ولأن الحرارة تعجل من هذه السرعة فإنها تستطيع أن تصهر الجوامد وتحولها إلى سوائل ثم تبخر السوائل وتحولها إلى غازات .

كما أن الكهرباء تتولد بقوانين . . كما يتحرك التيار الكهربائى ويفعل ويؤثر على أساس من فرق الجهد والشدة .

كما تتوقف جاذبية كل نجم على مقدار جرمه وكتلته .

والزلازل التى تبدو أنواعاً من الفوضى لها هى الأخرى نظام وأحزمة وخطوط تحدث فيها ويمكن رسم وتتبع الأحزمة الزلزالية بطول الكرة الأرضية وعرضها .

والكون كله جدول من القوانين المنضبطة الصريحة التى لا غش فيها ولا خداع .

سوف يرتفع صوت ليقول : وما رأيك فيما نحن فيه من الغش والخداع والحروب والمظالم والفوضى وقتل بعضنا البعض بغياً وعدواناً . . أين النظام هنا ؟

وسوف أقول له : هذا شيء آخر . . فإن ما يحدث بيننا نحن دولة بنى آدم يحدث لأن الله أخلفنا على الأرض وأقامنا ملوكاً نحكم وأعطانا الحرية . . وعرض علينا الأمانة فقبلناها .

وكان معنى إعطائنا الحرية أن تصبح لنا إمكانية الخطأ والصواب .

وكل ما نرى حولنا فى دنيانا البشرية هو نتيجة هذه الحرية التى أسأنا استعمالها .

إن الفوضى هى فعلنا نحن وهى النتيجة المترتبة على حريتنا .

أما العالم فهو بالغ الذروة فى الانضباط والنظام .

ولو شاء الله لأخضعنا نحن أيضاً للنظام قهراً كما أخضع الجبال والبحار والنجوم والفضاء . . ولكنه شاء أن ينفى عنا القهر لتكتمل بذلك عدالته . . وليكون لكل منا فعله الخاص الحر الذى هو من جنس دخيلته .

أراد بذلك عدلاً ليكون بعثنا بعد ذلك على مقامات ودرجات هو إحقاق الحق ووضع كل شيء فى نصابه .

والحياة مستمرة .

وليس ما نحياه من الحياة فى دنيانا هو كل الحياة .

ومعنى هذا أن هذه الفترة الاعتراضية من المظالم والفوضى هى فترة حكمتها وأسبابها وأنها عين العدالة من حيث هى امتحان لما يلى من حياة مستمرة أبداً .

إن دنيانا هى فترة موضوعة بين قوسين بالنسبة لما بعدها وما قبلها ، وهى ليست كل الحقيقة ولا كل القصة . . وإنما هى فصل صغير من رواية سوف تتعدد فصولاً .

وقد أدرك الإنسان حقيقة البعث بالفطرة .

أدركها الإنسان البدائى .

وقال بها الأنبياء أخباراً عن الغيب .

وقال بها العقل والعلم الذى أدرك أن الإنسان جسد وروح كما ذكرنا فى فصول سابقة . . وإن الإنسان يستشعر بروحه من إحساسه الداخلى العميق المستمر بالحضور برغم شلال التغيرات الزمنية من حوله . وهو إحساس ينبئ بأنه يملك وجوداً داخليًّا متعالياً على التغيرات متجاوزاً للزمن والفناء والموت .

وفلاسفة مثل عمانويل كانت وبرجسون وكير كجارد ، لهم وزنهم فى الفكر قالوا بحقيقة الروح والبعث .

وفى كتاب جمهورية أفلاطون . . فصل رائع عن خلود الروح .

هى حقيقة كانت تفرض نفسها إذن على أكبر العقول وعلى أصغر العقول وكانت تقوم كبداهة يصعب إنكارها .

ولكن أهم برهان على البعث فى نظرى هو ذلك الإحساس الباطنى العميق الفطرى الذى نولد به جميعاً ونتصرف على أساسه . إن هناك نظاماً محكماً وقانوناً وعدلا .

ونحن نطالب أنفسنا ونطالب غيرنا فطريًّا وغريزيًّا بهذا العدل .

وتحترق صدورنا إذا لم يتحقق هذا العدل .

ونحارب لنرسى دعائم ذلك العدل .

ونموت فى سبيل العدل .

وفى النهاية لا نحقق أبداً ذلك العدل .

وهذا يعنى أنه سوف يتحقق بصورة ما لا شك فيها . . لأنه حقيقة مطلقة فرضت نفسها على عقولنا وضمائرنا طول الوقت .

وإذا كنا لا نرى ذلك العدل يتحقق فى دنيانا فلأننا لا نرى كل الصورة

ولأن دنيانا الظاهرة ليست هى كل الحقيقة .

وإلا فلماذا تحترق صدورنا لرؤية الظلم ولماذا نطالب غيرنا دائماً بأن يكون عادلا . . لماذا نحرص كل هذا الحرص ونشتعل غضباً على مالا وجود له .

يقول لنا المفكر الهندى وحيد الدين خان : إذا كان الظمأ إلى الماء يدل على وجود المـاء فكذلك الظمأ إلى العدل لابد أنه يدل على وجود العدل . . ولأنه لا عدل فى الدنيا . . فهو دليل على وجود الآخرة مستقر العدل الحقيقى .

إن شعورنا الداخلى الفطرى هو الدليل القطعى على أن العدل حق . . وإن كنا لا نراه اليوم .. فإننا سوف نراه غداً .. هذا توكيد يأتينا دائماً من داخلنا . . وهو الصدق لأنه وحى البداهة .

والبداهة والفطرة جزء من الطبيعة المحكمة الخالية من الغش ، وهى قانون من ضمن القوانين العديدة التى ينضبط بها الوجود .

سوف يرتفع صوت ليقول : لندع عالم الآدميين ونسأل : لماذا خلق اللّٰه الخنزير خنزيراً والكلب كلباً . . والحشرة حشرة . . ما ذنب هذه الكائنات لتخلق على تلك الصور المنحطة . . وأين العدل هنا ؟

وإذا كان اللّٰه سوف يبعث كل ذى روح فلماذا لا يبعث القرد والكلب والخنزير ؟

والسؤال وجيه ولكن يلقيه عقل لا يعرف إلا نصف القضية . . أو سطراً واحداً من ملف التحقيق . . ومع ذلك يتعجل معرفة الحكم وحيثياته .

والواقع أن كل الكائنات الحيوانية نفوس .

واللّٰه قد اختار لكل نفس القالب المادى الذى تستحقه .

واللّٰه قد خلق الخنزير خنزيراً لأنه خنزير .

اختار للنفس الخنزيرية قالباً مادياً خنزيرياً . . .

ونحن لا نعلم شيئاً عن تلك النفس الخنزيرية قبل أن يودعها اللّٰه فى

قالبها المادى الخنزيرى . . ولا نعلم لماذا وكيف كان الميلاد على تلك الصورة .

وما قبل الميلاد محجوب .

كما أن ما بعد الموت محجوب .

ولكن أهل المشاهدة يقولون كما يقول القرآن إننا كنا قبل الميلاد فى عالم (يسمونه عالم الذر) ونكون بعد الموت فى عالم آخر . . والحياة أبدية ولا موت وإنما انتقال وارتقاء فى معراج لا ينتهى . صعوداً وتطوراً وتسامياً وكدحاً إلى اللّه .

وهذا الاستمرار يقول به العقل أيضاً .

والعدل وهو الحقيقة الأزلية التى وقرها الله فى الفطرة وفى الحشوة الآدمية . . وحتى فى الحشوة الحيوانية كما قدمت فى بداية مقالى .

هذا العدل حقيقة مطلقة سوف تقول لنا إن جميع القوالب المادية والحيوانية هى استحقاقات مؤكدة لا ندرى شيئاً عن تفاصيلها ولا كيف كانت ولكننا نستطيع أن نقول بداهة إنها استحقاقات . . وإن اللّه خلق الخنزير خنزيراً لأن نفسه كانت نفساً خنزيرية فكان هذا ثوبها وقالبها الملائم .

أما بعث الحيوانات فالقرآن يقول به .

« وما مِنْ دابَّةٍ فى الأرْضِ ولا طائرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْه إلا أُمَمٌ أمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِى الْكِتابِ مِنْ شَئٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » .

(الأنعام ٣٨)

هى أمم من الأنفس يقول لنا القرآن إنها تحشر كما نحشر . . أما ما يجرى عليها بعد ذلك وأين تكون وما مصيرها . . فهو غيب . . وتطلع إلى محجوبات وفضول لن نجد له جواباً شافياً .

والعلم بكل شىء فى داخل اللحظة المحدودة وفى عمرنا الدنيوى هو طمع فى مستحيل .

ولكن إذا كان نصيبنا من العلم وإذا كان ما غنمناه بالتأمل هو أن العدل حقيقة أزلية وأن اللّه وقرها وأودعها فى الفطرة فقد علمنا الكثير وأدركنا كفايتنا . وبالصورة التى أدركنا بها اللّه فى مقالنا الأول على أنه العقل الكلى المحيط وأنه القادر المبدع الملهم المعتنى بمخلوقاته ، بهذه الصورة سوف نفهم كيف أودع اللّه هذه الفطرة الهادية المرشدة فى مخلوقاته فهذا مقتضى عنايته وعدله . . أن يخلق مخلوقاته ويخلق لها النور الذى تهتدى به . وسوف نصدق أيضاً أن اللّه أرسل الأنبياء وأوحى بالكتب . . فإن اللّه لا يكون رباً ولا إلهاً ملهماً مدبراً بغير ذلك .

وسوف يكون دليلنا على صدق الكتب السماوية هو ما تأتينا به من علم وغيب وحكمة وتشريع وحق مما لا يتأتى لجهد فردى أن يهتدى إليه بالمحاولة الشخصية .

إن اللّه الخالق العادل الملهم الذى خلق مخلوقاته وألهمها الطريق . . (وهو لباب الأديان كلها) . . هو مبدأ أولى يصل إليه العقل دون إجهاد . وتوحى به الفطرة بداهة .

وإنما الافتعال كل الافتعال . . هو القول بغير ذلك .

والإنكار يحتاج إلى الجهد كل الجهد وإلى الالتفاف والدوران واللجاجة والجدل العقيم ثم نهايته إلى التهافت . . لأنه لا يقوم على أساس . . ولأنه يدخل فى باب المكابرة والعناد أكثر مما يدخل فى باب التأمل المحايد النزيه والفطرة السوية .

وهذا هو ما قالته لى رحلتى الفكرية الطويلة . . من بدايتها المزهوة فى كتاب « اللّه والإنسان » إلى وقفتها الخاشعة على أبواب القرآن والتوراة والإنجيل .

وليس متديناً فى نظرى من تعصب وتحزب وتصور أن نبيه هو النبى الوحيد وأن اللّه لم يأت بغيره . . فإن هذا التصور للّه هو تصور طفولى متخلف يظن

أن اللّه أشبه بشيخ قبيلة . . ومثل هذا الإحساس هو عنصرية وليس تديناً .

وإنما التصور الحق للّه . . أنه الكريم الذى يعطى الكل ويرسل الرسل للكل .

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيها نَذِيرٌ »

(فاطر ٢٤)

« ولَقَدْ بَعَثْنا فى كُلِّ أمَّةٍ رَسُولاً »

(النحل ٣٦)

« وما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فى أُمِّها رَسُولاً »

(القصص ٥٩)

« ورُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ » .

(النساء ١٦٤)

ومعنى هذه الآية أن بوذا يمكن أن يكون رسولاً فى عصره وإن لم يرد ذكره فى القرآن .

وإخناتون يمكن أن يكون رسولاً فى زمانه . . ويمكن أن يكون ما وصلنا من تعاليمهم قد خضع للتحريف . .

واللّه يريد بهذا أن يوحى بالإيمان المنفتح الذى يحتضن كل الرسالات وكل الأنبياء وكل الكتب بلا تعصب وبلا تحيز .

ولهذا يأمرنا بالإسلام ديناً لأنه الدين الوحيد الذى يعترف بكل الرسل وبكل الأنبياء وبكل الكتب ويختمها حكمة وتشريعاً ، ويردها إلى نبعها وأصلها . . الإله الواحد الرحيم الملهم . . الذى أرسل الهداة جميعاً من آدم إلى الخاتم .

وأصدق مثل للوعى الدينى المتفتح هو وعى رجل مثل غاندى . . هندوسى ومع ذلك يقرأ فى صلاته فقرات من القرآن والتوراة والإنجيل وكتاب « الدامابادا »

لبوذا . . فى خشوع ومحبة . . مؤمناً بكل الكتب وكل الرسل . . وبالخالق الواحد الذى أرسلها .

وهو رجل حياته مثل كلامه . أنفقها فى الحب والسلام .

والدين واحد من الناحية العقائدية وإن اختلفت الشرائع فى الأديان المتعددة .

كما أن الرب واحد .

والفضلاء من جميع الأديان هم على دين واحد .

لأن المتدين الفاضل لا يتصور الله خالقاً له وحده وهادياً له وحده أو لفئة وحدها . . وإنما هو نور السموات والأرض . . المتاح لكل من يجهد باحثاً عنه . . الرحمن الرحيم المرسل للهداة المنزل للوحى فى جميع الأعصر والدهور . . وهذا مقتضى عدله الأزلى . . وهذا هو المعنى الجدير بالمقام الإلهى . . وبدون هذا الإيمان المنفتح لا يكون المتدين متديناً .

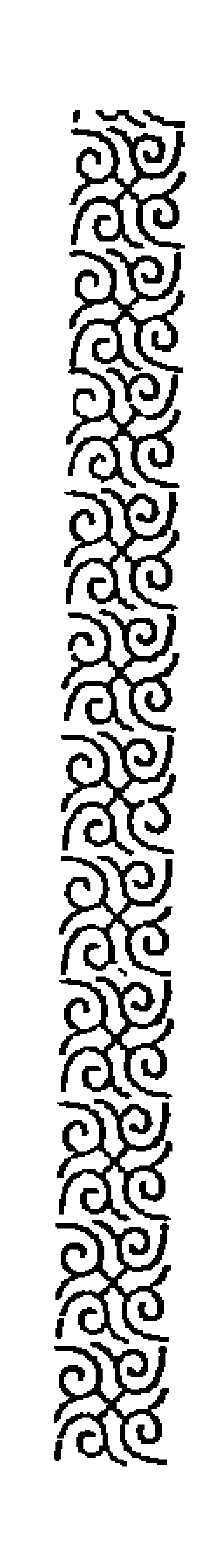
أما الأديان التى تنقسم شيعاً يحارب بعضها بعضاً باسم الدين ، فإنها ترفع راية الدين كذباً . . وما الراية المرفوعة إلا راية العنصر والعرق والجنس . . وهى مازالت فى جاهلية الأوس والخزرج وحماسيات عنترة . . تحارب للغرور . . وإن ظنت أنها تحارب لله . . وهى هالكة ، الغالب فيها والمغلوب . مشركة . . كل منها عابد لتمثاله ولنفسه ولتصوره الشخصى وليس عابداً لله

وإنما تبدأ عبادة الله بمعرفة الله ومقامه الأسمى .

وتبدأ معرفة الله بمعرفة النفس ومكانها الأدنى .

وهذا هو الطريق . . والصراط . . والمعراج الذى يبدأ منه عروج السالكين فى هجرتهم الكبرى إلى الحق .

لماذا العذاب؟



المثقفون لهم اعتراض تقليدى على مسألة البعث والعقاب ، فهم يقولون : كيف يعذبنا الله والله محبة ؟ وينسى الواحد منهم أنه قد يحب ابنه كل الحب ومع ذلك يعاقبه بالضرب والحرمان من المصروف والتأديب والتعنيف . . وكلما ازداد حبه لابنه كلما ازداد اهتمامه بتأديبه . . ولو أنه تهاون فى تربيته لا تهمه الناس فى حبه لابنه ولقالوا عنه إنه أب مهمل لا يرعى أبناءه الرعاية الكافية . . فما بال الرب وهو المربى الأعظم . . وكلمة الرب مشتقة من التربية .

والواقع أن عبارة « الله محبة » عبارة فضفاضة يسىء الكثيرون فهمها ويحملونها معنى مطلقاً . . ويتصورون أن الله محبة على الإطلاق . . وهذا غير صحيح .

فهل يحب الله الظلم مثلاً ؟

مستحيل . .

مستحيل أن يحب الله الظلم والظالمين . . وأن يستوى فى نظره ظالم ومظلوم . . وهذا التصور للقوة الإلهية . . هو فوضى فكرية . .

ويلزم فعلاً أن يكون لله العلو المطلق على كل الظالمين ، وأن يكون جباراً مطلقاً يملك الجبروت على كل الجبارين . . وأن يكون متكبراً على المتكبرين مذلاً للمذلين قوياً على جميع الأقوياء . . وأن يكون الحكم العدل الذى يضع كل إنسان فى رتبته ومقامه .

وبمقتضى ما نرى حولنا من انضباط القوانين فى المادة والفضاء والسماوات يكون استنتاجنا للعدل الإلهى استنتاجاً سليماً يعطى الصفة لموصوفها . .

وكل البينات تحت أيدينا تقوم لتؤكد صفة العدل الإلهى والنظام والحكمة والتدبير .

والذين ينكرون النظام والعدل هم الذين يحتاجون إلى إقامة البرهان وإلى تقديم الدليل على إنكارهم . . وليس الذين يؤمنون بالنظام .

أما الذين ينكرون العذاب على إطلاقه وينكرون أن الإنسان مربوب تعلو عليه قوة أعلى منه وقوانين أعلى منه فهؤلاء ندعوهم إلى نظرة فى أحوال عالمهم الأرضى . . نظرة فى الدنيا دون حاجة إلى افتراض آخرة .

ولا أحد لم يجرب ألم الضرس الذى يخرق الدماغ ويشق الرأس كالمنشار .

والمغص الكلوى والصداع الشق وألم الغضروف وسل العظام وهى ألوان من الجحيم يعرفها من ألقى به سوء حظه إلى تجربتها .

وزيارة لعنبر المحروقين فى القصر العينى سوف تقنع المشاهد بأن هناك فارقاً كبيراً بين رجل محروق مشوه يصرخ فى الضمادات ، وبين حال رجل يرشف فنجان شاى فى استرخاء ولذة على شاطئ النيل وإلى جواره حسناء تلاطفه .

إن العذاب حقيقة ملموسة .

والإنسان مربوب بقوة أعلى منه وهو عديم الحيلة فى قبضة تلك القوة .

ويستوى الأمر أن يسمى المؤمن هذه القوة . . « الله » وأن يسميها الملحد

« الطبيعة » أو « القوانين الطبيعية » أو « قانون القوانين » فما هذا التهرب إلا سفسطة لفظية . . المهم أنه لم يجد بدًّا من الاعتراف بأن هناك قوة تعلو على الإنسان وعلى الحوادث . . وأن هذه القوة تعذب وتنكل .

وأصحاب المشاعر الرقيقة الذين يتأففون من تصور الله جباراً معذباً علينا أن نذكرهم بما كان يفعله الخليفة التركى حينما كان يصدر حكم الإعدام بالخازوق على أعدائه . . وما كان يفعله الجلاد المنوط به تنفيذ الحكم حينما كان يلقى بالضحية على بطنه ثم يدخل فى الشرج خازوقاً ذا رأس حديدية مدببة يظل يدقه ببطء حتى تتهتك جميع الأحشاء ويخرج الخازوق من الرقبة . . وكيف أنه كان من واجب الجلاد أن يحتفظ بضحيته حيًّا حتى يخرج الخازوق من رقبته ليشعر بجميع الآلام الضرورية .

وأفظع من ذلك أن تفقأ عيون الأسرى بالأسياخ المحمية فى النار .

مثل هؤلاء الجبارين هل المفروض أن يقدم لهم الله حفلة شاى لأن الله محبة ؟

بل إن جهنم هى منتهى المحبة ما دامت لا توجد وسيلة غيرها لتعريف هؤلاء بأن هناك إلهاً عادلاً .

وهى رحمة من حيث كونها تعريفاً وتعليماً لمن رفض أن يتعلم من جميع الكتب والرسل ، وللذين كذبوا حتى أوليات العقل وبداهات الإنسانية .

أيكون عدلاً أن يقتل هتلر عشرين مليوناً فى حرب عالمية . . يساق فيها عماله الأسرى ويعدمون الألوف منهم فى غرف الغاز ويحرقونهم فى المحارق . . ثم عند الهزيمة ينتحر هتلر هارباً وفارًّا من مواجهة نتيجة أعماله .

إن العبث وحده وأن يكون العالم عبثاً فى عبث هو الذى يمكن أن ينجى هذا القاتل الشامل من ذنبه .

ولا شىء حولنا فى هذا العالم المنضبط الجميل يدل على العبث . . وكل

شيء من أكبر النجوم إلى أدق الذرات ينطق بالنظام والضبط والإحكام .

ولا يكون الله محبة . . ولا يكون العادل . . إلا إذا وضع هذا الرجل فى هاوية أعماله .

إن العاقل الفطن المتأمل لن يحتاج إلى فلسفة ليدرك حقيقة العذاب فإنه سوف يكتشف نذر هذا العذاب فى نفسه فى داخل ضميره . . وفى عيون المذنبين ونظرات القتلة . . وفى دموع المظلومين وآلام المكلومين وفى ذل الأسرى وجبروت المنتصرين وفى حشرجة المحتضرين .

وهو سوف يدرك العذاب والحساب حينما يحتويه الندم .

والندم هو صوت الفطرة لحظة الخطأ .

وهو القيامة الصغرى والجحيم الأصغر وهو نموذج من الدينونة .

وهو إشارة الخطر التى تضيء فى داخل النفس لتدل على أن هناك ميزاناً للأعمال . . وأن هناك حقاً وباطلاً . . ومن كان على الحق فهو على صراط وقلبه مطمئن . . ومن كان على باطل فهو فى هاوية الندم وقلبه كليم .

وعذاب الدنيا دائماً نوع من التقويم . . هو كذلك على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمم . . فهزيمة ٦٧ فى سيناء كانت درساً ، كما أن رسوب الطالب يكون درساً – كما أن آلام المرض واعتلال الصحة هى لمن عاش حياة الإسراف والترف والرخاوة والمتعة درس .

والعذاب يجلو صدأ النفس ويصقل معدنها .

ولا نعرف نبياً أو مصلحاً أو فناناً أو عبقرياً إلا وقد ذاق أشد العذاب مرضاً أو فقراً أو اضطهاداً .

والعذاب من هذه الزاوية محبة . . وهو الضريبة التى يلزم دفعها للانتقال إلى درجة أعلى .

وإذا خفيت عنا الحكمة فى العذاب أحياناً فلأننا لا ندرك كل شيء

ولا نعرف كل شيء ولا نرى من القصة إلا تلك المرحلة المحدودة بين قوسين التى اسمها الدنيا . . أما ما قبل ذلك وما بعد ذلك فهو بالنسبة لنا غيب محجوب . . ولذا يجب أن نصمت فى احترام ولا نطلق الأحكام .

أما كيفيات العذاب بعد البعث فلا يمكن القطع فيها تفصيلاً لأن الآخرة كلها غيب . . ويمكن أن يكون ما ورد فى الكتب المقدسة بهذا الشأن رموزاً وإشارات . . كما نقول للصبى الذى لم يدرك البلوغ حينما يسألنا عن اللذة الجنسية إنها مثل السكر أو العسل لأننا لا نجد فى قاموس خبراته شيئاً غير ذلك . . ولأن تلك اللذة بالنسبة له غيب لا يمكن وصفه بكلمات من محصوله اللغوى فهى خبرة لم يجربها إطلاقاً ، وبالمثل الجنة والجحيم هى خبرات بالنسبة لنا غيب ولا يمكن وصفها بكلمات من قاموسنا الدنيوى . . وكل ما يمكن هو إيراد أوصاف على سبيل التقريب مثل النار أو الحدائق الغناء التى تجرى من تحتها الأنهار . . أما ما سوف يحدث فهو شيء يفوق بكثير كل هذه الأوصاف التقريبية مما لم تره عين ولم يخطر على قلب بشر .

ويمكن أن يقال دون خطأ إن جهنم هى المقام الأسفل بكل ما يستتبع ذلك المقام من عذاب حسى ومعنوى . . وأن الجنة هى المقام الأعلى بكل ما يستتبع ذلك المقام من نعيم حسى ومعنوى .

والصوفية يقولون إن جهنم هى مقام البعد (البعد عن الله) والحجب عن الله . . والجنة هى مقام القرب بكل ما يتبع ذلك القرب من سعادة لا يمكن وصفها .

« وَمَنْ كانَ فِي هَذِهِ أعْمَى فَهُـوَ فى الآخرة أعْمَى وأضَلُّ سَبِيلاً » . والعمى هنا هو عمى البصيرة .

إنها إذن أشبه بما نرى من درجات ومقامات وتفاوت بين أعمى وبصير . ومهتد وضال . ولكن فى الآخرة سوف يكون التفاوت عظيماً .

« انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً » .

(الإسراء – ٢١)

لدرجة أن من سيكون فى المقام الأسفل سيكون حاله حال من فى النار وأسوأ . . إنه قانون التفاضل الذى يحكم الوجود كله دنيا وآخرة ملكا وملكوتاً غيبا وشهوداً .

لكل واحد رتبة واستحقاق ومقام ودرجة . . ولا يستوى اثنان .

ولا يكون الانتقال من درجة إلى درجة إلا مقابل جهد وعمل وإختبار وابتلاء . . ومن كان فى الدنيا فى أحط الدرجات من عمى البصيرة فسيكون حاله فى الآخرة فى أحط الدرجات أيضاً .

وهذا عين العدل . . أن يوضع كل إنسان فى مكانه ودرجته واستحقاقه . . وهذا ما يحدث فى الدنيا ظلماً وهو ما سوف يحدث فى الآخرة عدلا .

والعذاب بهذا المعنى عدل .

والثواب عدل .

وكلاهما من مقتضيات الضرورة .

أن يكون الحديد الصلب غاية فى الصلابة فيصنع منه الموتور .

ويكون الكاوتشوك رخواً فتصنع منه العجلات .

ويكون القش رخيصاً فتصنع منه رأس المكنسة .

وأن يكون القطن الفاخر لصناعة الوسائد . . والقطن الردىء لتسليك البالوعات .

هذه بداهات وأوليات تقول بها الفطرة والمنطق السوى ولا تحتاج إلى تدبيج مقالات فى الفلسفة ولا إلى رص حيثيات ومسببات .

ولهذا كانت الأديان كلها مقولة فطرية . . لا تحتمل الجدل ولا تحتمل

التكذيب . . ولهذا كانت حقيقة مطلقة تقبلها العقول السوية التى لم تفسدها آفات الفلسفة والسفسطة . . والتى احتفظت ببكارتها ونقاوتها وبرئت من داء العناد والمكابرة .

ولهذا يقول الصوفى إن الله لا يحتاج إلى دليل بل إن الله هو الدليل الذى يستدل به على كل شيء .

هو الثابت الذى نعرف به المتغيرات .

وهو الجوهر الذى ندرك به اختلاف الظواهر .

وهو البرهان الذى ندرك به حكمة العالم الزائل .

أما العقل الذى يطلب برهاناً على وجود الله فهو عقل فقد التعقل .

فالنور يكشف لنا الأشياء ويدلنا عليها .

ولا يمكن أن تكون الأشياء هى دليلنا على النور وإلا نكون قد قلبنا الأوضاع . . كمن يسير فى ضوء النهار ثم يقول . . أين دليلك على أن الدنيا نهار . . أثبت لى بالبرهان .

ومن فقد سلامة الفطرة وبكارة القلب . . ولم يبق له إلا الجدل وتلافيف المنطق وعلوم الكلام . . فقد فقد كل شيء وسوف يطول به المطاف . . ولن يصل أبداً .

ومثل الذى يحتج على العذاب الدنيوى ويتبرم ويتسخط ويلعن الحياة ويقول إنها حياة لا تحتمل وإنه يرفضها وإن أحداً لم يأخذ رأيه قبل أن يولد وإنه خلق قهراً وحكم عليه بالعذاب جبراً وإن هذا ظلم فادح .

مثل هذا الرافض الساخط مثل الفنان الذى يؤدى دوراً فى مسرحية . . ويقتضى الدور أن يتلقى الضرب والركل كل يوم أمام المتفرجين .

لو أن هذا الممثل فقد الذاكرة ولم ير من شريط حياته إلا هذا الدور الذى يؤديه بين قوسين على خشبة المسرح كل يوم . . فإنه سوف يحتج . .

رافضاً أن يتلقى العذاب . . ويقول إن أحداً لم يأخذ رأيه وإنه خلق قهراً وحكم عليه بالعذاب جبراً وقضى عليه بالإهانة أمام الناس بدون مبرر معقول وبدون اختيار منه منذ البداية .

وسوف ينسى هذا الممثل أنه كان هناك اتفاق قبل بدء الرواية . . وكان هناك تكليف من المخرج ثم قبول للتكليف من جانب الممثل . . ثم عهد وميثاق على تنفيذ المطلوب . . كل هذا تم فى حرية قبل أن يبدأ العرض . . وارتضى الممثل دوره اختياراً . . بل إنه أحب دوره وسعى إليه .

ولكن الممثل قد نسى تماماً هذه الحقبة الزمنية قبل الوقوف على خشبة المسرح . . ومن هنا تحولت حياته بما فيها من تكاليف وآلام إلى علامة استفهام ولغز غير مفهوم .

وهذا شأن الإنسان الذى تصور أن كل حياته هى وجوده بالجسد فى هذه اللحظات الدنيوية وأنه هالك ومصيره التراب . وأنه ليس له وجود غير هذا الوجود الثلاثى الأبعاد على خشبة الحياة الدنيا .

نسى هذا الإنسان أنه كان روحاً فى الملكوت وأنه جاء إلى الدنيا بتكليف وأنه قبل هذا التكليف وارتضاه . . وأنه كانت بينه وبين خالقه (المخرج الأعظم لدراما الوجود) عهود ومواثيق . . وأنه بعد دراما الوجود الدنيوى يكون البعث والحساب كما أنه بعد المسرحية يكون النقد من النقاد والنجاح والفشل من الجمهور والسقوط فى عين النظارة أو الارتفاع فى نظرهم .

إنه النسيان والغفلة .

والنظرة الضيقة المحدودة التى تتصور أن الدنيا كل شىء . . هى التى تؤدى إلى ضلال الفكر . . وهى التى تؤدى إلى الحيرة أمام العذاب والشر والألم . . .

ومن هنا جاءت تسمية القرآن بأنه . . ذكر . . وتذكير . . وتذكرة . . ليتذكر أولو الألباب .

والنبي هو مذكر .

« فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » .

(الغاشية ٢١ – ٢٢)

الدنيا ليست كل القصة .

إنها فصل فى رواية . . كان لها بدء قبل الميلاد وسيكون لها استمرار بعد الموت .

وفى داخل هذه الرؤية الشاملة يصبح للعذاب معنى . . .

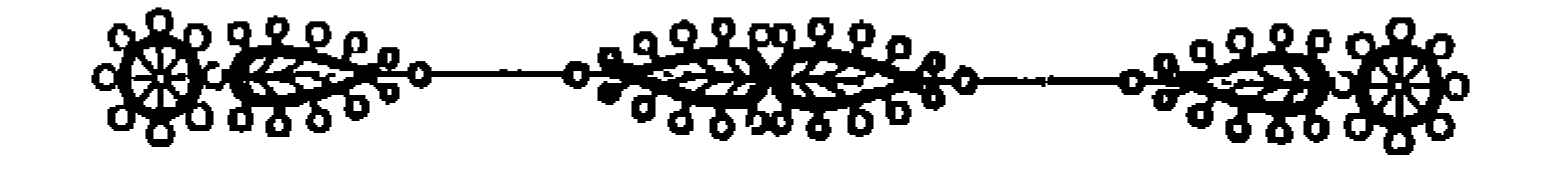
يصبح عذاب الدنيا رحمة من الرحيم الذى ينبهنا به حتى لا نغفل . . إنه محاولة إيقاظ لتتوتر الحواس ويتساءل العقل . . وهو تذكير دائم بأن الدنيا لن تكون ولا يمكن أن تكون جنة . . وإنها مجرد مرحلة . . وإن الإخلاد إلى لذاتها يؤدى بصاحبه إلى غفلة مهلكة .

إنه العقاب الذى ظاهره العذاب وباطنه الرحمة .

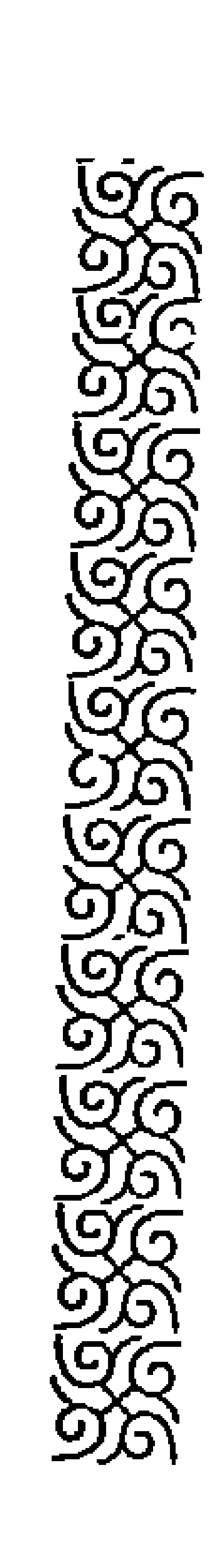
وأما عذاب الآخرة فهو الصحو على الحقيقة وعلى العدل المطلق الذى لا تفوته ذرة الخير ولا ذرة الشر وهو اليقين بنظام المنظم الذى أبدع كل شىء صنعاً .

« واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ » .

واليقين هنا هو الموت وما وراءه .



ماذا قالت لي الخلوة ؟



هل أنت صادق ؟

سؤال سوف يجيب عليه الكل بنعم . . فكل واحد يتصور أنه صادق وأنه لا يكذب . . وقد يعترف أحدهم بكذبة أو بكذبتين ويعتبر نفسه بلغ الغاية من الدقة والصراحة مع النفس وأنه أدلى بحقيقة لا تقبل مراجعة .

ومع ذلك فدعونا نراجع معاً هذا الادعاء العريض وسوف نكتشف أن الصدق شيء نادر جداًّ . . وأن الصادق الحقيقى يكاد يكون غير موجود .

وأكثرنا فى الواقع مغشوش فى نفسه حينما يتصور أنه من أهل الصدق .

بل إننا لنبدأ فى الكذب من لحظة أن نتيقظ فى الصباح وقبل أن نفتح فمنا بكلمة .

أحياناً تكون مجرد تسريحة الشعر التى نختارها كذبة .

الكهل الذى يسرح شعره خنافس ليبدو أصغر من سنه يكذب ، والمرأة العجوز التى تصبغ شعرها لتبدو أصغر من سنها تكذب .

والباروكة على رأس الأصلع كذبة .

وطقم الأسنان فى فم الأهتم كذبة .

والبدَلة السبور الخفيفة التى تخفى تحتها فانلة صوف كذبة .

والكورسيه والمشدات حول البطن المترهلة كذبة .

والنهد الكاوتشوك على الصدر المنهك من الرضاع كذبة .

والمكياج الذى يحاول صاحبه أن يخفى به التجاعيد هو نوع آخر من الكذب الصامت .

والبودرة والأحمر والكحل والريميل والرموش الصناعية . . كلها أكاذيب ينطق بها لسان الحال قبل أن يفتح الواحد منا فمه ويتكلم .

بل إن مجرد ضفيرة المدارس على رأس بنت الثلاثين كذبة .

واللبانة فى فم رجل كهل هى كذبة أكثر وقاحة .

كل هذا ولم يبدأ اللسان ينطق ولم ينفتح الفم بعد .

فإذا فتح الواحد منا فمه وقال صباح الخير . . فإنه يقولها على سبيل العرف والعادة . . لمن ينوى له الخير ولمن ينوى له الشر . . فهو يكذب . . وهو يقرأ السلام على من يبيت له العدوان . . فهو يكذب .

فإذا رفع سماعة التليفون مضى يطلب ما لا يريد من الأشياء لمجرد أنها مظاهر ومجاملات . . فهو يكذب . . وقد يرفض ما يريد خجلا أو ادعاء . . فهو يكذب .

والولد والبنت يتكلمان طوال ساعتين فى كل شىء إلا ما يتحرقان شوقاً إلى أن يتصارحا به . . فهما يكذبان .

وفتاة البار تبدؤك الحديث بالحب وهو لايخطر لها على بال ولا تشغلها سوى حافظة نقودك . وكم زجاجة من الشمبانيا ستفتح لها .

والإعلان الذى يصف لك نكهة السيجارة وفوائدها الصحية يكذب عليك .

والإعلان الذى يقول لك إن قرص الإسبرين يشفى من الأنفلونزا كذب

حتى بالقياس إلى علم الأدوية ذاته .

وكل ما يدور فى عالم البيع والشراء يبدأ بالكذب .

وصورة لاعب التنس فى يده زجاجة ويسكى وصورة الأسد الذى يحتضن زجاجة الكينا . . وبطل الجرى الذى يدخن سيجارة فرجينيا كلها صنوف من هذه الأكاذيب الظريفة التى تراها ملصقة على الجدران وعلى أغلفة الصحف وفى إعلانات السينما والتليفزيون وكأنما أصبح الكذب عرفاً تجارياً لا لوم عليه .

وفى عالم السياسة والسياسيين وفى أروقة الأمم المتحدة وعلى أفواه الدبلوماسيين نجد أن الكذب هو القاعدة .

بل إن فن الدبلوماسية الرفيع هو كيف تستطيع أن تجعل الكذب يبدو كالصدق . . وكيف تقول مالا تعنى . . وكيف تخفى ما تريد . . وكيف تحب ما تكره . . وكيف تكره ما تحب .

وأذكر بهذه المناسبة النكتة التى رويت عن تشرشل حينما رأى شاهد مقبرة مكتوباً عليه . .

« هنا يرقد الرجل الصادق والسياسى العظيم » .

فقال ضاحكاً :

هذه أول مرة أرى فيها رجلين يدفنان فى تابوت واحد .

فلم يكن من الممكن إطلاقاً فى نظر تشرشل أن يكون الرجل الصادق والسياسى العظيم رجلا واحداً . . إذ أن أول مؤهلات العظمة !! نظر تشرشل هو الكذب . ـاهد على انتشار هذه

وشرط السياسة هو أن تختفى الحقيقة لحسا العاطفة لتتقدم الحيلة . . والفطنة . . والذكا

والدبلوماسى الذى يجاهر بعاطفته هو دبلوماسى أبله . . بل إنه لا يكون دبلوماسياً على الإطلاق .

وفى عالم الدين ودنيا العبادات يطل الكذب الخفى من وراء الطقوس والمراسيم .

شهر الصيام الذى هو امتناع عن الأكل يتحول إلى شهر أكل فتظهر المشهيات والحلويات والمخللات والمتبلات . . من كنافة إلى مشمشية إلى قطايف إلى مكسرات ويرتفع استهلاك اللحم فى شهر رمضان فتقول لنا الإحصاءات بالأرقام إنه يصل إلى الضعف ويصبح شهر رمضان هو شهر الصوانى والطواجن .

وبين كل مائة مصل أكثر من تسعين يقفون بين يدى الله وهم شاردون مشغولون بصوالحهم الدنيوية يعبدون الله وهم فى الحقيقة يعبدون مصالحهم وأغراضهم ويركعون الركعة لتقضى لهم هذه المصالح والأغراض .

وقد عاش بابوات القرون الوسطى فى ترف الملوك والسلاطين وسبحوا فى الذهب والحرير والسلطة والنفوذ ، وامتلكوا الإقطاعيات والقصور باسم الدين وباسم الإنجيل الذى يقول إن الغنى لن يدخل ملكوت الله إلا إذا دخل الجمل من ثقب إبرة .

بل إنهم تصوروا أنهم امتلكوا الجنة فباعوها صكوكاً لطالبى الغفران .

وفى دولة الحب نجد أن مخادعة النفس هى الأسلوب المتعارف عليه . . يخدع كل واحد نفسه ويخدع الآخر أحياناً بوعى وأحياناً بدون وعى . . فيتحدث سوى [illegible] عن الحب وهما يريدان أن يقدما مبرراً شريفاً مقبولا للوصول إلى

والإعلان [illegible] للحبيب أنه قد جن حبًّا وهو فى الواقع يلتمس لنفسه وسيلة عليك .

والإعلان الذى يقول لك إنه يمارس الحب كنوع من قتل الوقت . . أو

كنوع من إظهار البراعة والمهارة أو كمظهر من مظاهر النجاح .

وأحياناً تكون كلمة الحب كذبة معسولة تخفى وراءها رغبة شريرة فى الامتلاك والاستحواذ والسيطرة .

وأحياناً تكون كلمة الحب خطة محبوكة وشركاً للوصول إلى ميراث .

وهى فى أكثر صورها شيوعاً وسيلة للوصول إلى لذة سريعة وطريقة لتدليك الضمير والتغلب على الخجل ورفع الكلفة .

وهى ذريعتنا الدائمة للتغلب على عقدة الذنب فتخلع المرأة آخر قطعة ثياب وهى تطمئن نفسها بأنها ضحية الحب . . وأن الحب إحساس طاهر وأنه أمر الله وأنه قضاء وقدر . . وأنها ليست أول من أحبت ولا آخر من أعطت .

ولا توجد شبكة حريرية من الأكاذيب كما توجد فى الحب . . ففى كل كلمة كذبة . . وفى كل لمسة كذبة . . والغريزة الجنسية ذاتها تكذب فما أسرع ما تشتعل وما أسرع ماتنطفئ . وما أسرع ما تضجر وتمل وتطالب بتغيير الطعام .

والصدق فى الحب نادر أندر من الماس فى الصحارى . . وهو من أخلاق الصديقين وليس من أخلاق الغمر العادى من الناس .

وتتواطأ أغانى الحب وقصص الحب وتتآمر هى الأخرى لتنصب شراكاً من الأكاذيب المنمقة الجميلة وترسى دعامات ساحرة من الأوهام والأحلام الوردية والصور البراقة الخادعة عن القبلة والضمة ولقاء الفراش ولذة العذاب وعذاب اللذة ولسعة الحرمان ودموع الوسادة وإغماء السعادة وصحوة الفراق . . وضباب وضباب . . وعطور وصور خلابة مرسومة بريشة فنانين كذابين عظام .

والكذب فى الفن عادة قديمة بدأها الشعراء من زمن طويل .

وقصائد المديح وقصائد الهجاء فى شعرنا العربى شاهد على انتشار هذه العادة السيئة .

والفن وليد الهوى والخاطر والمزاج . . والمزاج متقلب .
ما أكثر الكذب حقاً !
إننا لنكذب حتى فى الأكل فنأكل ونحن شبعانون .
أين الصدق إذن ؟
ومتى تأتى هذه اللحظة الشحيحة التى نتحرى فيها الحق والحق وحده ؟
إنها تأتى على ندرة .
فى معمل العالم الذى يضع عينه على ميكرسكوب بحثاً عن حقيقة .
هنا نجد العقل يتطلع فى شوق حقيقى وصادق و يبحث فى حياد مطلق . . ويفكر فى موضوعية على هدى أرقام دقيقة ومقادير وقوانين .

والعلم بذاته هو النظرة الموضوعية المستقلة عن الهوى والمزاج وأداته الوحيدة . . صدق الاستقراء . . وصدق الفراسة .

واللحظة الأخرى الصادقة هى لحظة الخلوة مع النفس حينما يبدأ ذلك الحديث السرى . . ذلك الحوار الداخلى .

تلك المكالمة الانفرادية حيث يصغى الواحد إلى نفسه دون أن يخشى أذناً أخرى تتلصص على الخط .

ذلك الإفضاء والإفشاء والاعتراف والطرح الصريح من الأعماق إلى سطح الوعى فى محاولة مخلصة للفهم .

وهى لحظة من أثمن اللحظات .

إن الحياة تتوقف فى تلك اللحظة لتبوح بحكمتها .

والزمن يتوقف ليعطى ذلك الشعور المديد بالحضور . . حيث نحن فى حضرة الحق . . وحيث لا يجوز الكذب والخداع والتزييف . . كما لا يجوز لحظة الموت ولحظة الحشرجة .

إننا نكتشف ساعتها أننا عشنا عمرنا من أجل هذه اللحظة . . وأننا تألمنا

وتعذبنا من أجل أن نصل إلى هذه المعرفة الثمينة عن نفوسنا .

وقد تأتى تلك اللحظة فى العمر مرة فتكون قيمتها بالعمر كله .

أما إذا تأخرت ولم تأت الا ساعة الموت . . فقد ضاع العمر دون معنى ودون حكمة . . وأكلته الأكاذيب . . وجاءت الصحوة بعد فوات الأوان .

ولهذا كانت الخلوة مع النفس شيئاً ضرورياً ومقدساً بالنسبة لإنسان العصر الضائع فى متاهات الكذب والتزييف . . وهى بالنسبة له طوق نجاة وقارب إنقاذ .

والإنسان يولد وحده ويموت وحده ويصل إلى الحق وحده .

وليست مبالغة أن توصف الدنيا . . بأنها باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح . .

فكل ما حولنا من مظاهر الدنيا يتصف بالبطلان والزيف .

ونحن نقتل بعضنا بعضاً فى سبيل الغرور وإرضاء لكبرياء كاذب .

والدنيا ملهاة قبل أن تكون مأساة .

ومع ذلك نحن نتحرق شوقاً فى سبيل الحق ونموت سعداء فى سبيله .

والشعور بالحق يملؤنا تماما وإن كنا نعجز عن الوصول إليه .

إننا نشعر به ملء القلب وإن كنا لا نراه حولنا .

وهذا الشعور الطاغى هو شهادة بوجوده .

إننا وإن لم نر الحق وإن لم نصل إليه وإن لم نبلغه فهو فينا وهو يحفزنا وهو مثال مطلق لا يغيب عن ضميرنا لحظة وبصائرنا مفتوحة عليه دواماً .

ولحظة التأمل الصافى تقودنا إليه .

والعلم يقودنا إليه .

ومراقبتنا لأنفسنا من الداخل تقودنا إليه .

وبصائرنا تهدى إليه .

والحق فى القرآن هو الله . . وهو أحد أسمائه الحسنى .
وكل هذه المؤشرات الداخلية تدل عليه .
وهو متجاوز للدنيا متعال عليها .
نراه رؤية بصيرة لا رؤية بصر .
وتبرهن عليه أرواحنا بكل شوقها وبكل نزوعها .

والعجب كل العجب لمن يسألنا عن برهان على وجود الله . . على وجود الحق . . وهو نازع إليه بكليته مشغوف به بجماع قلبه .

وكيف يكون موضع شك من هو قبلة كل القلوب ومهوى جميع الأفئدة وهدف جميع البصائر ؟

كيف نشك فى وجوده وهو مستول على كل مشاعرنا ؟
كيف نشك فى الحق ونطلب عليه دليلاً من الباطل ؟
كيف نتزلق مع المنطق المراوغ إلى هذه الدرجة من التناقض فنجعل من لب الوجود وحقيقة حقائقه محل سؤال ؟

إنى لا أجد نصيحة أثمن من أن أقول ليعد كل منا إلى فطرته . . ليعد إلى بكارته وعذريته التى لم تدنسها لفلفات المنطق ومراوغات العقل .
ليعد كل منا إلى قلبه فى ساعة خلوة .
وليسأل قلبه .
وسوف يدله قلبه على كل شىء .
فقد أودع الله فى قلوبنا تلك البوصلة التى لاتخطئ . . والتى اسمها الفطرة والبداهة .

وهى فطرة لا تقبل التبديل ولا التشويه لأنها محور الوجود ولبه ومداره وعليها تقوم كل المعارف والعلوم .

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّين حَنيفاً (أى نازعاً ومائلا) فِطْرَةَ الله الَّتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله » .

(الروم – ٣٠)

لقد جعل الله هذه الفطرة نازعة إليه بطبيعتها تطلبه دواماً كما تطلب البوصلة أقطابها مشيرة إليه دالة عليه .

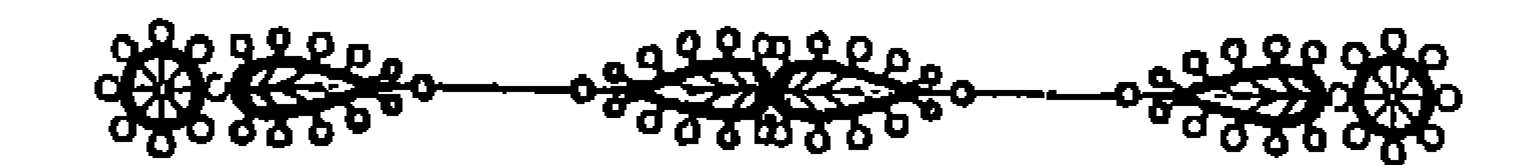
فليكن كل منا كما تملى عليه طبيعته لا أكثر .

وسوف تدله طبيعته على الحق .

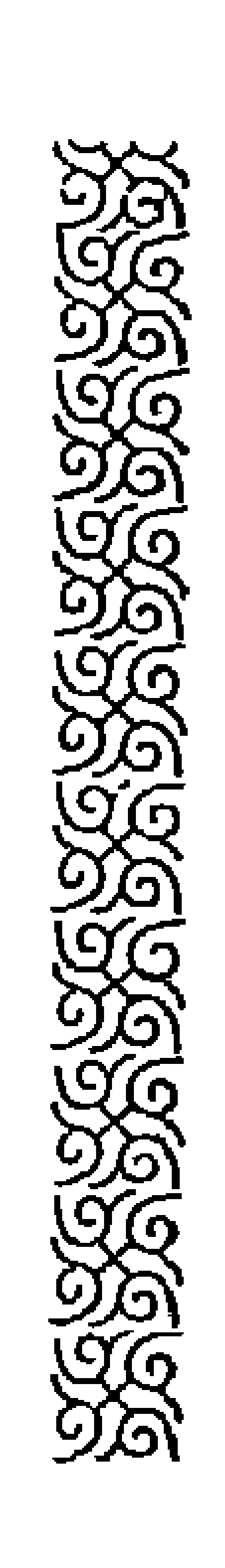
وسوف تهديه فطرته إلى الله بدون جهد .

كن كما أنت .

وسوف تهديك نفسك إلى الصراط .



التوازن العظيم



لا أنسى تلك الليلة منذ سنوات وأنا فى رحلتى فى أدغال أفريقيا الاستوائية أشق النيل العريض فى سفينة نيلية وقد تجاوزنا الملكال ودخلنا منطقة يكثر فيها البعوض وينبسط فيها النيل على شكل مستنقعات على مدى البصر .

والسفينة تتهادى على سطح الماء فى جو لزج شديد الرطوبة ويقع مريضاً بالملاريا كل من على السفينة حتى الربان . . وأنا أبتلع أقراص الكاموكين بانتظام خوفاً من الإصابة بالحمى .

وذات ليلة خطر لى أن أصعد على سطح السفينة لأشاهد أفريقيا الاستوائية فى الليل .

ودهنت وجهى وذراعى بطارد البعوض وتسللت إلى السطح وكان ما رأيته شيئاً كالحلم .

كانت آلاف الأشجار تضيء وتنطفئ وكأنها أشجار عيد الميلاد يلهو بها الأطفال وقد غطوها بآلاف القناديل الكهربائية الصغيرة يضيئونها ويطفئونها معاً .

ومسحت على عينى من الدهشة . . وعدت أنظر .

كان ما أرى حقيقة لا خيالا . ١

كانت الأشجار تومض بالفعل كأنها مغطاة بآلاف الكهارب ثم تنطفئ .

وأخبرنى الربان أن ما رأيت فى تلك الليلة كان هو الحقيقة بعينها . . وأن تلك الأشجار تغطيها آلاف من حشرات الحباحب المضيئة وأنها تضئ معاً لتجتذب البعوض بضوئها ثم تأكله وتعود فتنطفئ لتضىء من جديد . . وأن هذه سنة الطبيعة كلما تكاثرت فيها حشرة اصطنع لها الله حشرة مضادة تأكلها ليحفظ للمخلوقات توازنها فلا يطغى واحد على الآخر إلا بحساب .

وظللت أذكر تلك الليلة .

وظللت أذكر ذلك الحديث .

وكل يوم يجتمع لدىّ المزيد من الأدلة بأن الكون هو بالفعل مسرح للتوازن العظيم فى كل شىء . . وأن كل شىء قد قدر فيه تقديراً دقيقاً .

لو كانت الكرة الأرضية أصغر حجماً مما هى لضعفت جاذبيتها ولأفلت الهواء من جوها وتبعثر فى الفضاء ولتبخر الماء وتبدد ولأصبحت جرداء مثل القمر لا ماء ولا هواء ولا جو ولاستحالت الحياة .

ـ ولو كانت أكبر حجماً مما هى لازدادت قوتها الجاذبة ولأصبحت الحركة على سطحها أكثر مشقة ولازداد وزن كل منا أضعافاً ولأصبح جسده عبئاً ثقيلا لا يمكن حمله .

ولو أنها دارت حول نفسها بسرعة أقل كسرعة القمر مثلا لاستطال النهار إلى ١٤ يوماً والليل إلى ١٤ ليلة ولتقلب الجو من حر مهلك بطول أسبوعين إلى صقيع قاتل بطول أسبوعين ولأصبحت الحياة مستحيلة .

وبالمثل لو أن الأرض اقتربت فى فلكها من الشمس مثل حال الزهرة لأهلكتنا الحرارة . . ولو أنها ابتعدت فى مدارها مثل زحل والمشترى لأهلكنا البرد .

وأكثر من هذا فنحن نعلم أنها تدور بزاوية ميل قدرها ٣٣ درجة الأمر الذى تنشأ عنه المواسم وتنتج عنه صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكن .

ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكاً لامتصت الأكسجين ، ولما وجدنا حاجتنا من هذا الغاز الثمين للتنفس .

ولو كانت البحار أعمق لامتصت المياه الزائدة ثانى أكسيد الكربون ولما وجد النبات كفايته ليعيش ويتنفس .

ولوكان الغلاف الهوائى أقل كثافة لأحرقتنا النيازك والشهب المتساقطة بدلاً من أن تستهلك هذه الشهب وتتفتت فى أثناء اختراقها للغلاف الهوائى الكثيف كما يحدث حالياً .

ولو زادت نسبة الأكسجين عما هى عليه حالياً فى الجو لازدادت القابلية للاحتراق ولتحولت الحرائق البسيطة إلى انفجارات هائلة .

ولو انخفضت لاستحال نشاطنا إلى خمول .

ولولا أن الثلج أقل كثافة من الماء لما طفا على السطح ولما حفظ أعماق البحار دافئة وصالحة لحياة الأسماك والأحياء البحرية .

ولولا مظلة الأوزون المنصوبة فى الفضاء فوق الأرض والتى تمنع وصول الأشعة فوق البنفسجية إلى الأرض إلا بنسب ضئيلة . . لأهلكتنا هذه الأشعة القاتلة .

فإذا جئنا إلى تشريح الإنسان نفسه فسوف نرى المعجز والملغز من أمر هذا التوازن الدقيق المحسوب . . فكل عنصر له فى الدم نسبة ومقدار . . الصوديوم . . البوتاسيوم . . الكالسيوم . . السكر . . الكولستيرول . . البولينا .

وأى اختلال فى هذه النسب ولو بمقادير ضئيلة يكون معناه المرض . . فإذا تفاقم الاختلال فهو العجز والموت .

والجسم مسلح بوسائل آلية تعمل فى تلقائية على حفظ هذا التوازن طوال الحياة .

بل إن قلوية الدم لها ضوابط لحفظها .

وحموضة البول لها ضوابط لحفظها .

ودرجة الحرارة المكيفة دائماً عند ٣٧ مئوية من ورائها عمليات فسيولوجية وكيمائية تحفظها ثابتة متزنة عند هذا المستوى .

وكذلك ضغط الدم .

وتوتر العضلات .

ونبض القلب .

ونظام الامتصاص والإخراج .

ونظام الاحتراق الكيمائى فى فرن الكبد .

ثم الاتزان العصبى بين عوامل التهدئة والإثارة .

ثم عملية التنظيم التى تقوم بها الهرمونات والإنزيمات بين التعجيل والإبطاء للعمليات الكيمائية والحيوية .

معجزة فنية من معجزات التوازن والاتساق والهارمونى يعرفها كل طبيب وكل دارس للفسيولوجيا والتشريح والكيمياء العضوية .

« وخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً » (الفرقان – ٢)

ولن تنتهى الأمثلة فى علم النبات والحيوان والطب والفلك ، مجلدات ومجلدات .

وكل صفحة سوف تؤيد وتؤكد هذا التوازن المحكم والانضباط العظيم فى عالم الخلق والمخلوقات .

والقول بأن كل هذا الاتساق والنظام حدث صدفة واتفاقاً هو السذاجة بعينها . كقولنا إن انفجاراً فى مطبعة أدى إلى أن تصطف الحروف على هيئة قاموس محكم .

والكيمائى المغرور الذى قال . إيتونِي بالهواء والماء والطين وظروف نشأة

الحياة الأولى وأنا أصنع لكم إنساناً . هذا الكيميائى قد قرر احتياجه سلفاً لكل العناصر والظروف وهو اعتراف بالعجز عن تقليد صنعه الخالق الذى خلق الشيء وخلق ظروفه أيضاً .

ولو أنا آتيناه بكل هذه العناصر وكل تلك الظروف . ولو أنه فرضاً وجدلا استطاع أن يخلق إنساناً . . فإنه لن يقول . . صنعته الصدفة . . . بل إنه سوف يقول . . صنعته أنا .

والكلام عن القرد الذى يجلس على آلة كاتبة لمدى اللانهاية من الزمان ليدق لانهاية من الإمكانيات . وكيف أنه لابد يوماً ماأن يدق بالصدفة بيتاً لشكسبير أوجملة مفيدة . هو كلام مردود عليه .

فسوف نسلم جدلا وفرضاً بأن هذا حدث فى الطبيعة وبأنه حدث صدفة واتفاقاً وبعد ملايين الملايين من التباديل والتوافيق بين العناصر . . . تكونت بالصدفة فى مياه المستنقعات كمية من الحامض النووى DNA الذى يستطيع أن يكرر نفسه .

لكن . . . كيف تطورت هذه الكمية من الحامض العضوى إلى الحياة التى نراها ؟

سوف نعود فنقول بالصدفة أمكن تشكيل البروتوبلازم .

ثم بصدفة أخرى تشكلت الخليه .

ثم بصدفة ثالثة تشعبت إلى نوعين خلية نباتية وخلية حيوانية .

ثم نتسلق شجرة الحياة درجة درجة ومعنا هذا المفتاح السحرى .

كلما أعيتنا الحيلة فى فهم شيء قلنا إنه حدث صدفة .

هل هذا معقول .

بالصدفة تستدل الطيور والأسماك المهاجرة على أوطانها على بعد آلاف الأميال وعبر الصحارى والبحار .

بالصدفة يكسر الكتكوت البيضة عند أضعف نقطة فيها ليخرج .

بالصدفة تلتئم الجروح وتخيط شفراتها بنفسها بدون جراح .

بالصدفة يدرك عباد الشمس أن الشمس هى مصدر حياته فيتبعها .

بالصدفة تصنع أشجار الصحارى لنفسها بذوراً مجنحة لتطير عبر الصحارى إلى حيث ظروف إنبات ورى وأمطار أحسن .

بالصدفة اكتشف النبات قنبلته الخضراء (الكلوروفيل) واستخدمها فى توليد طاقة حياته .

بالصدفة صنعت البعوضة لبيضها أكياساً للطفو (بدون معونة أرشميدس) .

والنحلة التى أقامت مجتمعاً ونظاماً ومارست العمارة وفنون الكيمياء المعقدة التى تحول بها الرحيق إلى عسل وشمع .

وحشرة الترميت التى اكتشفت القوانين الأولية لتكييف الهواء فأقامت بيوتاً مكيفة وطبقت فى مجتمعها نظاماً صارماً للطبقات .

والحشرات الملونة التى اكتشفت أصول وفن مكياج التنكر والتخفى .

هل كل هذا جاء صدفة .

وإذا سلمنا بصدفة واحدة فى البداية . فكيف يقبل العقل سلسلة متلاحقة من المصادفات والخبطات العشوائية .

إنها السذاجة بعينها التى لاتحدث إلا فى الأفلام الهزلية الرخيصة .

وقد وجد الفكر المادى نفسه فى مأزق أمام هذه السذاجة فبدأ يحاول التخلص من كلمة صدفة ليفترض فرضاً آخر . . فقال إن كل هذه الحياة المذهلة بألوانها وتصانيفها بدأت من حالة ضرورة . . مثل الضرورة التى تدفعك إلى الطعام ساعة الجوع . ثم تعقدت الضرورة بتعقد الظروف والبيئات والحاجات فنشأت كل هذه الألوان .

وهو مجرد لعب بالألفاظ .
فمكان الصدفة وضعوا كلمة « تعقد الضرورة » .
وهى فى نظرهم تتعقد تلقائيًّا . . وتنمو من نغمة واحدة إلى سيمفونية تلقائياً .
كيف ؟
كيف ينمو الحدث الواحد إلى قصة محبوكة بدون عقل مؤلف ؟
ومن الذى أقام الضرورة أصلا ؟
وكيف تقوم الضرورة من لا ضرورة ؟
إنها استماتة العقل الخبيث المكابر ليتجنب صوت الفطرة الذى يفرض نفسه فرضاً ليقول إن هناك خالقاً مدبراً هو اليد الهادية وعصا المايسترو التى تقود هذه المعزوفة الجميلة الرائعة .
هذا التوازن العظيم والاتساق المذهل والتوافق والتلاحم والانسجام الذى يتألف من ملايين الدقائق والتفاصيل يصرخ بأن هناك مبدعاً لهذه البدائع وأنه إله قادر جامع لكل الكمالات قريب من مخلوقاته قرب دمها من أجسادها . . معتنى بها عناية الأب الحنون مستجيباً لحاجاتها سميعاً لآهاتها بصيراً بحالاتها . . وأنه الله الذى وصفته لنا الأديان بأسمائه الحسنى ولاسواه . . وليس القانون الأصم الذى تقول به العلوم المادية البكماء . . ولا إله أرسطو المنعزل . . ولا إله أفلاطون القابع فى عالم المثل . . ولا هو الوجود المادى بكليته كما تصور إسبينوزا وأتباع وحدة الوجود .
وإنما هو :
الأحد .
الذى ليس كمثله شىء .
المتعالى على كل مانعرف من حالات وصور وأشكال وزمان ومكان .
ظاهر بأفعاله خفى بذاته . . لاتراه الأبصار ويرى كل الأبصار . . بل إن

كل الأبصار ترى به وبنوره وبما أودع فيها من قدرة .

والعقل العلمى لايعترف بهذه الكلمات الصوفية ويريد أن يرى الله ليعترف به . . فإذا قلنا له إن الله ليس محدوداً ليقع فى مدى الأبصار . . وإنه اللانهاية . . وإنه الغيب .

يقول لنا العلم . إنه لهذا لايعترف به . وإنه ليس من العلم الإيمان بالغيب . وإن مجال العلم هو المحسوس ، يبدأ من المحسوس وينتهى إلى المحسوس .

فنقول للعلم . . كذبت .

إن نصف العلم الآن أصبح غيباً .

العلم يلاحظ ويدون الملاحظات . . يلاحظ أن صعود الجبل أشق من النزول منه . وأن رفع حجر على الظهر أصعب من رفع عصاً . . وأن الطير إذا مات وقع على الأرض . وأن التفاحة تقع هى الأخرى من شجرتها إلى الأرض . . وأن القمر يدور معلقاً فى السماء .

وهى ملاحظات لاتبدو بينها علاقة .

ولكن حينما يكتشف نيوتن الجاذبية ترتبط كل هذه الملاحظات لتصبح شواهد دالة على هذه الجاذبية . . وقوع التفاحة من شجرتها وصعوبة تسلق الجبل وصعوبة رفع الحجر . . وتعلق القمر فى السماء .

إنها نظرية فسرت لنا الواقع .

ومع ذلك فهذه الجاذبية غيب لاأحد يعرف كنهها . . لم ير أحد الأعمدة التى ترفع السماوات بما فيها من نجوم وكواكب .

ونيوتن نفسه وهو صاحب النظرية يقول فى خطاب إلى صديقه بنتلى :

إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لاحياة فيها ولا إحساس تؤثر على مادة أخرى وتجذبها مع أنه لاتوجد بينهما أية علاقة .

فها هى ذى نظرية علمية نتداولها ونؤمن بها ونعتبرها علماً . . وهى غيب فى غيب .

والإلكترون .

والموجة اللاسلكية .

والذرة .

والنيوترون .

لم نر منها شيئاً ومع ذلك نؤمن بوجودها اكتفاء بآثارها .ونقيم عليها علوماً متخصصة ونبنى لها المعامل والمختبرات . . وهى غيب فى غيب . . بالنسبة لحواسنا .

والعلم لم يعرف ماهية أى شىء على الإطلاق .

ونحن لا نعرف إلا أسماء . لانعرف مسميات . . نحن نتبادل مصطلحات دون أن نعرف لها كنها .

والله حينما علم آدم علمه الأسماء فقط ولم يعلمه المسميات .

« وعَلَّمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلَّها » (٣١ – البقرة)

وهذه هى حدود العلم .

وغاية مطمع العلم أن يتعرف على العلاقات والمقادير . ولكنه لا يستطيع أن يرى جوهر أى شىء أو ماهيته أو كنهه . هو دائماً يتعرف على الأشياء من ظواهرها ويتحسسها من خارجها .

ومع ذلك فهو يحتضن بنظرياته كل الماهيات ويفترض الفروض ويتصور مسائل هى بالنسبة لأدواته محض غيب وتخمين .

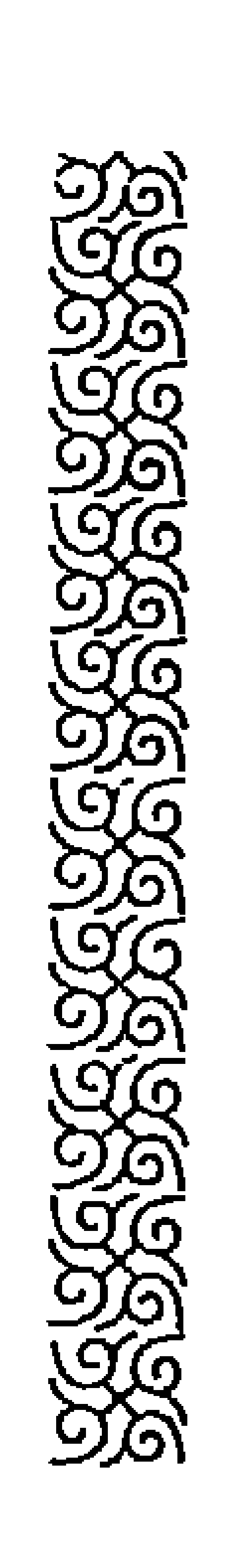
نحن فى عصر العلم الغيبى . . والضرب فى متاهات الفروض .

وليس للعلم الآن أن يحتج على الغيبيات بعد أن غرق إلى أذنيه فى الغيبيات .

وأولى بنا أن نؤمن بعالم الغيب . خالقنا البر الكريم . الذى نرى آثاره فى كل لمحة عين وكل نبضة قلب وكل سبحة تأمل .

هذا أمر أولى بنا من الغرق فى الفروض .

المسيخ الدجال



تروى لنا الأديان حكاية رجل يظهر في آخر الزمان ويأتى من الخوارق والمعجزات بما يفتن الناس من كافة أرجاء الأرض فيسيرون خلفه وقد اعتقدوا أنه إله .

وتصفه الروايات بأنه أعور ، وأنه يملك من القوة الخارقة مايجعله يرى بهذه العين الواحدة مايجرى فى أقصى الأرض كما يسمع بأذنه مايتهامس به الناس عبر البحار ، كما يسقط الأمطار بمشيئته فينبت الزرع ويكشف عن الكنوز المخبوءة ويشفى المرضى ويحيي الموتي ويميت الأحياء ويطير بسرعة الريح .

ويفتتن به كل من يراه ويسجد له ، على أنه الله . على حين يراه المؤمنون على حقيقته ولاتخدعهم معجزاته ويشهدون رسم الكفر على وجهه .

ذلك هو المسيخ الدجال ، إحدى علامات الساعة التى نقرأ عنها فى كتب الدين .

والمسيخ الدجال قد ظهر بالفعل كما يقول الكاتب البولندى ليوبولدفايس . . .

وقد أسلم هذا الكاتب وعاش بمكة . وتسمى باسم محمد أسد .

وهذا المسيخ الشائه ذو العين الواحدة كما يقول ليوبولدفايس هو :

التقدم المادى والقوة المادية والترف المادى . . معبودات هذا الزمان .

مدنية العصر الذرى ، العوراء العرجاء ، التى تتقدم فى اتجاه واحد ، وترى فى اتجاه واحد هو الاتجاه المادى ، على حين تفتقد العين الثانية « الروح » التى تبصر البعد الروحى للحياة . . فهى قوة بلا محبة ، وعلم بلا دين ، وتكنولوجيا بلا أخلاق .

وقد استطاع هذا المسخ فعلا عن طريق العلم أن يسمع مايدور فى أقصى الأرض « باللاسلكى » ويرى مايجرى فى آخر الدنيا « بالتليفزيون » ، وهو الآن يسقط المطر بوسائل صناعية ، ويزرع الصحارى ويشفى المرضى وينقل قلوب الأموات إلى قلوب الأحياء ، ويطير حول الأرض فى صواريخ وينشر الموت والدمار بالقنابل الذرية ، ويكشف عروق الذهب فى باطن الجبال .

وقد افتتن الناس بهذا المسخ فعبدوه .

وأمام هذا الاستعراض الباهر للتقدم العلمى الغربى فقدنا نحن الشرقيين ثقتنا بأنفسنا ونظرنا باحتقار إلى تراثنا وديننا .

وفى حمى الشعور بالنقص والتخلف تصورنا أن دياناتنا ضرب من الخرافات المخجلة التى يجب أن نتخلص منها لنلحق بركب التقدم وندخل فى رحاب المعبد الجديد . معبد العلم لنعبد ذلك الإله الجديد الذى اسمه القوة المادية .

وسجدنا مبهورين فاقدى الوعى وقد اختلطت علينا الوسيلة بالغاية . . فجعلنا من القوة المادية غايتنا . ونسينا أنها مجرد وسيلة وأداة .

القطار وسيلة .

والتلغراف وسيلة .

والكهرباء وسيلة .

والطاقة الذرية وسيلة .

ودور هذه الوسائل أن توضع فى خدمة الإنسان لتحرره من الضرورات المادية فيفرغ إلى الفكر والتأمل وإثراء روحه بالمعرفة الحقة .

وبدلا من أن تكون هذه الوسائل فى خدمتنا أصبحنا نحن فى خدمتها نكد ونكدح ونتعارك ونتكالب لنمتلك عربة وراديو وتليفزيوناً . فإذا امتلكنا هذه الأشياء ازددنا نهماً ورغبة لنمتلك عربة أكبر من العربة ثم جهاز تسجيل ستريوفونيك ثم قارباً للنزهة ثم يختاً ثم فيلا وحديقة وحمام سباحة . . ثم طائرة خاصة إن أمكن . ويطيش صوابنا شيئاً فشيئاً أمام سيل المنتجات الاستهلاكية التى تملأ الفاترينات . . ونتحول إلى جوع أكال يزداد جوعاً كلما أمعن فى الشراء . وحلقة مفرغة من الأطماع لا تنتهى إلا لتبدأ ، وهى أبداً تهدف إلى اقتناء سبب من أسباب القوة المادية أو الترف الحياتى مما تطرحه التكنولوجيا كل يوم فى واجهات المحلات .

وكما يكدس المواطن العادى البضائع الاستهلاكية تكدس الدول الأسلحة والذخائر ثم تدمر بها بعضها بعضاً فى حروب طاحنة ثم تعود فتكدس أسلحة أخطر وقنابل أكبر .

العالم أصبح مسرحاً مجنوناً يهرول فيه المجانين فى اتجاه واحد نحو القوة المادية . المسيخ الدجال الأعور ذو العين الواحدة . معبود هذا الزمان .

لا إله إلا المادة .

هذه هى الصلاة اليومية .

اختفى الإيمان بالله .

واختفى معه الإحساس بالأمن والسكينة والطمأنينة .

وأصبحت الصورة الفلسفية للعالم هى غابة يتصارع فيها المخلب والناب .

صراع طبقى . . وصراع عنصرى . . وصراع عقائدى . . عالم فظيع من الخوف والقتل .

ولا أحد فى السماء يرعى هذا العالم ويحفظه .

إلى هذه الحالة انتهت بنا عبادة الدجال الذى اسمه القوة المادية .

والنتيجة هي هذا الإنسان الكئيب المهموم الخائف القلق . وهذاالشاب الذى يدمن المخدرات فى شوارع لندن وباريس . . والانتحار والجنون الذى بلغ ذروته فى بلاد الغنى والوفرة والرخاء أمثال السويد والنرويج وأمريكا .

والإنسان المذعور الذى افتقد الأمان يحاول أن يستجلب لنفسه هذا الأمان بالوسائل الصناعية التكنولوجية . . عن طريق عين سحرية يضعها على الباب تعمل بالأشعة تحت الحمراء لاكتشاف اللصوص . وجرس إنذار للخزينة . ورسم كهربائى للقلب كل شهر لاكتشاف الجلطة قبل أوانها . وأجهزة تكييف للحر والبرد وبوالص تأمين . وعشرات الأصناف من الفيتامينات والمسكنات والمنبهات وعشرات الأجهزة التى توفر الجهد والقوة العضلية .

وكل وسيلة مادية تحتاج بدورها إلى وسيلة مادية أخرى لتؤمنها . وفى النهاية لا أمان ، بل مزيد من الخوف والقلق وسعار نحو مزيد من الوسائل المادية بلا جدوى .

وينسى الإنسان فى هذا التيه الذى أضاع فيه عمره أنه أخطأ منذ البداية حينما تصور أن هذا العالم بلا إله وأنه قذف به إلى الدنيا بلا نواميس تحفظه وبلا رب يسأله .

وأخطأ مرة أخرى حينما عبد القوة المادية وجعل منها مصدراً لسعادته وأمنه وهدفاً لحياته وغاية لسعيه ، وأقامها مكان الله . وتصور أنها يمكن أن تمنحه الأمن والسكينة والاطمئنان المفتقد ، وأنها يمكن أن تحفظه من الموت والدمار ، فإذا بها هى نفسها التى تسلبه سكينة النفس ، ثم إذا بها فى النهاية تصبح أدوات الحروب التى تدمره وتبعثره أشلاء .

وأخطأ مرة ثالثة حينما تصور أن الكيمياء والطبيعة والكهرباء علوم وأن الدين خرافة .

ولو أنه فكر قليلاً لأدرك أن الكيمياء والطبيعة والكهرباء هى فى الواقع علوم جزئية تبحث فى الجزئيات والعلاقات والمقادير والكميات . . وأن الدين علم كلى يبحث فى الكليات . . بل هو منتهى العلم لأنه يبحث فى البدايات الأولى للأشياء والنهايات المطلقة للأشياء ، والغايات النهائية للوجود ، والمعنى العام للحياة ، والمغزى الكلى للألم .

الكيمياء والطبيعة والكهرباء هى العلوم الصغيرة .

والدين هو العلم الكبير الذى يشتمل على كل العلوم فى باطنه .

ولا تعارض بين الدين والعلم ، لأن الدين فى ذاته منتهى العلم المشتمل بالضرورة على جميع العلوم .

والدين ضرورى ومطلوب لأنه هو الذى يرسم للعلوم الصغيرة غاياتها وأهدافها ويضع لها وظائفها السليمة فى إطار الحياة المثلى .

الدين هو الذى يقيم الضمير .

والضمير بدوره يختار للطاقة الذرية وظيفة بناءة . . ولا يلقى بها دماراً وموتاً على الأبرياء .

وهو الذى يهيب بنا أن نجعل من الكهرباء وسيلة للإضاءة لا وسيلة للهلاك .

والدين هو الذى يدلنا على أن كل العلوم وسائل وليست غايات كما أن التقدم المادى وسيلة وليس غاية والأدوات المادية وسائل هى الأخرى . والمادة ذاتها مخلوقة مثلنا وليست إلهاً يعبد . . وأنها لا تستطيع أن تمنح الإنسان الأمن والسكينة والسعادة . . ولأنها من طبيعتها التحلل والفساد والتبدل والتغير شأنها شأن ذلك الكون الناقص . وأنها لا تصلح سنداً ولا تشكل قوة حقيقية .

والتقدم المادى مطلوب ولكنه وسيلة لا أكثر من وسائل الإنسان المتحضر ولا يصح أن يكون غايته .

والدين لا يرفض التقدم المادى ولكنه يضعه فى مكانه كوسيلة لا غاية .

والدين لايرفض العلم بل يأمر به ويحض عليه ولكنه يضعه فى مكانه كوسيلة للمعرفة ضمن الوسائل العديدة التى يملكها الإنسان كالفطرة والبصيرة والبداهة والإلهام والوحى .

ورفض العلم ورفض الأخذ بالوسائل المادية المتقدمة خطيئة مثل عبادة هذه الوسائل والخضوع لها سواء بسواء ، وهو أحد أسباب التأخر فى بلادنا .

وأنت تجد فى الشرق أحد اثنين . . تجد من يرفض العلم اكتفاء بالدين والقرآن . . وتجد من يرفض الدين اكتفاء وعبادة للعلم المادى والوسائل المادية .

وكلا الاثنين سبب من أسباب النكبة الحضارية فى المنطقة . . وكلاهما لم يفهم المعنى الحقيقى للدين ولا المعنى الحقيقى للعلم .

والدين ، والإسلام خاصة ، يعتبر العلم فريضة . . ويقول نبينا إن من مات مهاجراً فى سبيل العلم فقد مات شهيداً . . وإن العلماء ورثة الأنبياء . . وإن علينا أن نطلب العلم ولو فى الصين . . وأول كلمة نزلت فى القرآن هى « اقرأ » .

والإسلام دين عقل يخاطب أتباعه بالمنهج العقلى .

فالعلم والتقدم العلمى المادى له مكانه العظيم فى ديننا .

ولكن هو دائماً وسيلة لا غاية . . أداة لا صنم معبود . .

وهذا هو وضع الشىء فى وضعه الصحيح .

فالوسيلة المادية لا تمنح النفس أمناً ولا سكينة . وإنما هى سبيل إلى الترف والرفاهية وتيسير الحياة . . أما القلق والخراب الروحى فإنه يبقى

ولا يزول بالرغم من وجود الفريجيدير والتليفزيون والراديو والريكوردر وجهاز التكييف والشفورليه وجميع الوسائل المادية . بل إن هذا القلق والخراب الروحى يتفاقم بازدياد خضوع الإنسان لهذه الوسائل وجريه وراءها .

ولا تنزل السكينة على القلب ولا تعمر الروح بالطمأنينة والأمان إلا بوسيلة واحدة هى الاعتقاد بأن هناك إلهاً خلق الكون وأن هذا الإله عادل كامل . . وأنه هيأ للكون نواميس تحفظه وقدر فيه كل شيء لحكمة وسبب وأننا راجعون إليه . وأن آلامنا وعذابنا لن تذهب عبثاً . وأن الفرد حقيقة مطلقة وليس ترساً فى آلة مصيره إلى التراب .

هذا اليقين الدينى هو وحده الذى يرد للإنسان اعتباره وكرامته وليس الفريجيدير والتليفزيون والريكوردر ولا أية وسيلة مادية مهما عظمت .

وبهذا اليقين تنزل السكينة على القلب ويصل الإنسان إلى حالة من العمار الروحى والتكامل الداخلى ويشعر بنفسه أقوى من الموت وأقوى من الظلم .

وبهذا اليقين يجابه أعظم الأخطار ويقهرها فهو بإيمانه فى حصن أقوى من دروع الدبابات . حصن لاسبيل إلى اختراقه بأى قذيفة . لأنه حصن يعبر الموت ذاته .

وبهذا الإيمان يشعر الإنسان أنه استرد هويته وأنه أصبح هو هو حقًّا . . وأنه أدرك ذاته وتعرف على نفسه ومكانته من خلال إدراكه لإلهه الواحد الكامل .

والذى جرب هذا الشعور النادر يعلم أنه حالة من الاستنارة الداخلية وأنه ليس افتعالاً . . وليس استجلاباً مزيفاً للأمان . . وإنما هو الحق عينه . . وأنه الصحو وليس الحلم .

وإنا لنعلم أمر هذا اليقين من حال نقيضه . .

من حال كثرة الناس الذين يعبدون الدجال .

مسيخ العصر الذرى ذو المخ الإلكترونى .

هذه الكثرة التى تتصارع بالمخلب والناب وتأكل المخدرات وتتخبط على أبواب الجنون والانتحار وتنحدر فى خطوات دموية إلى حرب عالمية ثالثة .

وسوف تقول لك فطرتك أى الاثنين على حق ؟

هذه الكثرة التى يأكل بعضها بعضاً وتتآكل حقداً وغلا وضراوة . . أم هذه القلة التى نزلت على قلوبها السكينة وأدركت أن هناك إلهاً . .

* * *

والدين لا يرفض الحياة ولا يرفض العقل .

والإسلام بالذات ينطلق من مبدأ حب الحياة والحرص عليها ورعايتها ، ويحض على احترام العقل وعلى طلب العلم ويقدم شريعة عصرية توحد بين الروح والجسد فى التئام فريد . . لا الروح تطغى على الجسد ولا الجسد يطغى على الروح وإنما يتصرف الاثنان على أنهما واحد . . فهو لا يطلب منا أن نميت الشهوة وإنما يطلب منا أن ننظمها ونوجهها فى إطار العلاقة المشروعة . . ومعيار التقوى عنده ليس الانقطاع للعبادة والعزلة والرهبانية . . وإنما معيارها العمل . . تسبيح الروح لا بد أن يقترن بعمل اليدين وسعى القدمين من أجل خير المجتمع ونفعه . . والصلاة لا يكفى فيها خشوع النفس وإنما لا بد أن يعبر الجسد عن الخشوع هو الآخر وفى ذات الوقت بالركوع والسجود . .

والصلاة الإسلامية هى رمز لهذه الوحدة التى لا تتجزأ بين الروح والجسد . . الروح تخشع واللسان يسبح والجسد يركع .

والطواف حول الكعبة رمز آخر لدوران الأعمال حول القطب الواحد . . واستهداف الحركات والأفكار لهدف واحد هو الخالق الذى خلق حيث لا موجود بحق إلا هو ، وحيث كل شئ منه وإليه . . والطواف هو التعبير الجسمانى والنفسانى والروحانى لهذا التوحيد .

وبهذا يعيد الإسلام إلى الإنسان التئامه روحاً وجسداً ويعيد إليه السكينة فينتهي ذلك الصراع الأزلي بين الشهوة والعقل ، ويولد منهما شيء جديد هو الشهوة العاقلة البصيرة التي يتوحد فيها النقيضان . . كما تتوحد العاطفة مع الفكر والباطن مع الظاهر فلا نعود نرى ذلك المخادع الذي يخالف قلبه عقله ويخالف عقله قوله ويخالف قوله فعله . . وإنما يقوم مقام ذلك الإنسان المفكك الممزق . . إنسان جديد توحد روحاً وجسداً . . وقولاً وفعلاً . . وباطناً وظاهراً . .

وبوصول الإنسان إلى وحدته مع نفسه يصل إلى وحدته مع ربه . . وهي حالة القرب التي يدخل بها الإنسان دائرة الضوء ويضع قدمه على حافة الملكوت .

ويدور الإسلام حول هذه الفكرة المحورية . . فكرة التوحيد . . ويؤكد القرآن هذا المعنى فى كل حرف وكل كلمة وكل آية ويكرره بمختلف الصور والقصص والأمثلة والحكم والعبر .

والإسلام يقدم للعصر المادى باب النجاة الوحيد والحل الوحيد والمخرج الوحيد . . فهو يقدم إليه كل تراثه الروحي دون أن يكلفه أن ينزل عن شيء من مكتسباته العلمية أو تفوقه المادى . . وكل ما يريده الإسلام هو أن يحقق الاقتران الناجح والتزاوج الناجح بين المادة والروح لتقوم مدنية جديدة هي مدنية القوة والرحمة ، حيث لا تكون القوة المادية مسخاً معبوداً وإنما تكون أداة ووسيلة فى يد القلب الرحيم . . وبذلك يتم تحطيم المسيخ الدجال . . وتقوم دولة الإنسان الكامل .

* * *

وجواباً على الذين يسألون فى حيرة : لماذا خلقنا الله ؟ لماذا أوجدنا فى هذه الدنيا ؟ ما حكمة هذا العذاب الذى نعانيه ؟

يجيب القرآن بمجموع آياته . . إن الله أنزل الإنسان إلى الدنيا بفصول

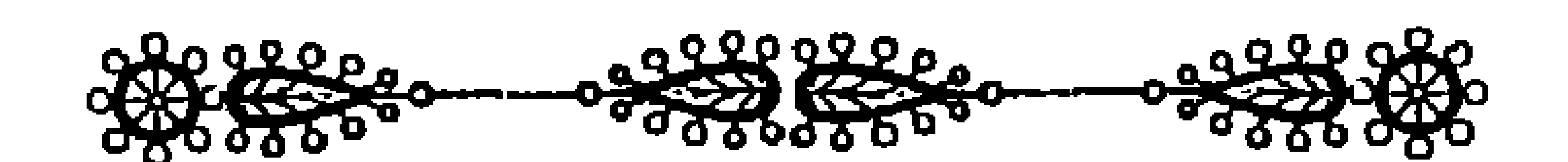
مفطور فيه . . ليتعرف على مجهولاتها ثم يتعرف على نفسه . ومن خلال إدراكه لنفسه يدرك ربه . . ويدرك مقام هذا الرب الجليل فيعبده ويحبه وبذلك يصبح أهلاً لمحبته وعطائه . . ولهذا خلقنا الله . . لهذا الهدف النهائى . . ليحبنا ويعطينا . . وهو يعذبنا ليوقظنا من غفلتنا فنصبح أهلاً لمحبته وعطائه .

بالحب خلق .

وللحب خلق .

وللحب يعذب .

تبارك وتعالى فى سماواته ، الذى خلقنا باسمه الرحمن الرحيم .



الفهرس

* صدر للمؤلف *

١ – الله والإنسان : مجموعة مقالات كتبت فى صيف ١٩٥٥ .
٢ – أكل عيش : مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٥٢ – ١٩٥٤ .
٣ – عنبر ٧ : مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٥٥ – ١٩٥٧ .
٤ – شلة الأنس : مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٦٢ – ١٩٦٤ .
٥ – رائحة الدم : مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٦٥ – ١٩٦٦ .
٦ – إبليس : دراسة كتبت فى عام ١٩٥٧ – ١٩٥٨ .
٧ – لغز الموت : دراسة كتبت فى عام ١٩٥٨ – ١٩٥٩ .
٨ – لغز الحياة : دراسة كتبت فى عام ١٩٦٧ .
٩ – الأحلام : دراسة كتبت فى عام ١٩٦١ .
١٠ – اينشتين والنسبية : دراسة كتبت فى عام ١٩٦١ .
١١ – فى الحب والحياة : مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦١ – ١٩٦٦ .
١٢ – يوميات نص الليل : مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦١ – ١٩٦٦ .
١٣ – المستحيل : رواية كتبت فى عام ١٩٦٠ .
١٤ – الأفيون : رواية كتبت فى عام ١٩٦٤ .
١٥ – العنكبوت : رواية كتبت فى أوائل عام ١٩٦٥ .
١٦ – الخروج من التابوت : رواية كتبت فى أوائل عام ١٩٦٥ .
١٧ – رجل تحت الصفر : رواية كتبت فى عام ١٩٦٦ .
١٨ – الإسكندر الأكبر : مسرحية كتبت فى صيف ١٩٦٣ .
١٩ – الزلزال : مسرحية كتبت فى صيف ١٩٦٣ .
٢٠ – الإنسان والطفل : مسرحية كتبت فى عام ١٩٦٤ .
٢١ – غوما : مسرحية كتبت فى شتاء ١٩٦٨ .
٢٢ – الشيطان يسكن فى بيتنا : مسرحية كتبت فى أبريل ١٩٧٣ .
٢٣ – الغابة : رحلة إلى أفريقيا الاستوائية كتبت فى أكتوبر ١٩٦٣ .
٢٤ – مغامرة فى الصحراء : رحلة إلى الصحراء الكبرى فى صيف ١٩٦٩ .
٢٥ – المدينة (أوحكايات مسافر) : مجموعة سفريات إلى أوربا بين ١٩٥٦ – ١٩٦٨ .
٢٦ – اعترفوا لى : مختارات من رسائل القراء بين ١٩٥٦ – ١٩٥٩ .

٢٧ – ٥٥ مشكلة حب : مختارات من رسائل القراء بين ١٩٦٠ – ٦٦
٢٨ – اعترافات عشاق : مختارات من رسائل القراء بين ١٩٥٦ – ٦٦
٢٩ – القرآن محاولة لفهم عصرى : دراسة كتبت فى شتاء ١٩٦٩ .
٣٠ – رحلتى من الشك إلى الإيمان : دراسة كتبت فى عام ١٩٧٠ .
٣١ – الطريق إلى الكعبة : رحلة حج كتبت فى عام ١٩٧١
٣٢ – الله : دراسة كتبت فى أوائل ١٩٧٢ .
٣٣ – التوراة : دراسة كتبت فى أوائل ١٩٧٢ .
٣٤ – الشيطان يحكم : مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦٥ – ١٩٧٠
٣٥ – رأيت الله : دراسة كتبت فى صيف ١٩٧٣ .
٣٦ – الروح والجسد : مجموعة مقالات كتبت فى شتاء ١٩٧٣ .
٣٧ – حوار مع صديقى الملحد : مجموعة مقالات كتبت فى مارس ١٩٧٤ .
٣٨ – الماركسية والإسلام : صدر عن دار المعارف فى فبراير سنة ١٩٧٥
٣٩ – محمد : صدر عن دار المعارف فى يوليو ١٩٧٥ .
٤٠ – السر الأعظم : صدر عن دار المعارف فى ديسمبر ١٩٧٥ .
٤١ – الطوفان : مسرحيات قصيرة وقصص ١٩٧٢ – ١٩٧٦
٤٢ – الأفيون : سيناريو وحوار صدر فى مارس ١٩٧٦ .

* مجموعات المؤلفات الكاملة *

٤١ - **قصص مصطفى محمود** : صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
٤٢ - **روايات مصطفى محمود** : صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
٤٣ - **مسرحيات مصطفى محمود** : صدر فى بيروت عام ١٩٧٢ .
٤٤ - **رحلات مصطفى محمود** : صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .

حازت روايته « رجل تحت الصفر »

على جائزة الدولة عام ١٩٧٠

رقم الإيداع	١٩٧٦/٢٨٤٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٦ - ٢١٤ -١

١ / ٧٥ / ٣١٧

٤٥ قرشاً